التناص القرآني في شعر الخوارج

د. فاضل أحمد القعود*

*أستاذ الأدب الإسلامي الأموي المساعد

جامعة صنعاء

الملخص

يتناول هذا البحث التناص القرآني في شعر الخوارخ ، بوصفه يمثِّل ظاهرة لافتة في شعرهم لا تخطئها العين ، والهدف استكشاف تجليات هذا اللون من التناص في شعر هذه الطائفة الدينية الجامحة . وقد تحرّك البحث – وفق مقتضيات خطته الإجرائية – في محورين : الأول نظري توقف عند مفهوم التناص : لغة واصطلاحًا ، كما تطرق إلى أهمية القرآن الكريم وتوظيفه في النصوص الشعرية بخاصة والأدبية بعامة . وأما المحور الثاني ، الذي يمثل أصل الدراسة ، فهو تطبيقي خالص ، وفيه تم استجلاء التناص القرآني في شعر الخوارج من خلال أربعة اشكال من التناص تمثلت في : تناص استشهادي اقتباسي ، وتناص إحالي ، وتناص تلميحي إشاري ، وتناص أسلوبي . وأما منهج الدراسة ، فهو منهج نقدي تطبيقي تحليلي ، من أهم أدواته الإجرائية ، الأخذ بمعطيات المناهج النقدية الحديثة وفتوحاتها الباهرة

الكلمات المفتاحية: التناص – تداخل النصوص – الإبداع

Abstract

This research paper deals with the Qur'anic intertextuality in the poetry of the Khawarkhs, as it represents a remarkable phenomenon in their poetry that cannot be missed by the eye. The aim of the paper is to explore the manifestations of this type of intertextuality in the poetry of this unruly religious sect. The research has been conducted according to the requirements of its procedural plan that consists of two axes. The first is theoretical that it stops at the concept of intertextuality in terms of linguistic and idiomatic intertextuality. The paper also tackles the importance of Holy Qur'an and its employment in poetic texts, in particular, and literary texts, in general. As for the second axis, that represents the authenticity of the study, the paper is purely empirical, in which the Qur'anic intertextuality has been clarified in the poetry of the Kharijites through four forms of intertextuality, represented in: quotational intertextuality, intertextuality of reference, indicative intertextuality, and the stylistic intertextuality. The paper has followed the analytical and empirical methodology; one of its most important procedural instruments is the adaption of the modern critical methods and their brilliant conquests.

Keywords: Intertextuality - Overlapping Texts - Creativity

ISSN : 2410-1818

مشكلة البحث :

تتجلّى مشكلة البحث في جانبين :

الأول : لم يحظ شعر الخوارج – فيما نعلم – بدراسة تخلص لوجه التناص القرآني فيه ؛ هذا على الرغم من أن الحضور القرآني فيه أمر لا تخطئه العين الفاحصة ، حتى لنستطيع القول إن التناص القرآني في شعر الخوارج يشكّل ظاهرة لافتة فيه ، بل ومتمكّنة كل التمكُّن .

أما الجانب الثاني : فيتمثل في أن معظم الدراسات والقراءات النقدية ، سواء الأكاديمية منها أو غيرها ، تصب اهتمامها – غالبا- على التناص في الشعر الحديث والأدب الحديث بصورة عامة ، في حين تكاد تغيب عنايتها ، بالمقابل ، عن دراسة التناص وظواهره في الشعر والأدب القديم بعامة .

أهمية الدراسة :

تأتي أهمية هذه الدراسة من اشتغالها على الشعر القديم ، في أفق معطيات المناهج النقدية الحديثة وفتوحاتها الباهرة.

منهج القراءة :

إن منهج هذه القراءة يعتمد على النقد التطبيقيّ التحليليّ الذي يتوسَّل – فيما يتوسَّل - بمعطيات القراءة الأسلوبية التناصية ، التي تحكمها الرؤى الجديدة بما هي رؤى تتخذ من لغة الخطاب الشعري ميدانًا لاجتراحاتها ، بغية الكشف عن البنية الدلالية العميقة فيه .

❁❁❁

تمهيد :

مفهوم التناص :

يعدّ التناص من المصطلحات النقدية الحديثة ، وهو صيغة صرفية على وزن (تفاعل)، وهي صيغة – كما يشي بذلك مبناها - تكتنز بالمفاعلة بين طرف وطرف آخر يقابله أو أطراف أخرى ، الأمر الذي يدل على معاني المشاركة والتداخل والتشابك .

والتناصُّ ، في اللغة ، يتحرَّك في أفق الجذرين اللغويين "نصَّ و نَصَصَ" ، اللذين أوردت لهما المعاجم العربية عدّة دلالات ؛ فقد جاء في لسان العرب أن النصَّ : " رفْعُك الشيء، نصَّ الحديث ينُصُهُ نَصًّا: رَفَعَه وكل ما أُظهِر فقد نُصّ ... والمِنَصّةُ : ما تُظْهَرُ عليه العروس لِتُرَى ... ونصَّ المتاعَ نصًّا: جَعَل بَعْضَه على بعض ... والنّصُّ: الإسنادُ إلى الرئيس الأكبر، والنصُّ التوقيف، والنص: التعيين على شيء ما... ونصَّ

ISSN : 2410-1818

الرجل نصًّا إذا سأله عن شيء حتى يستقصي ماعنده. ونصُّ كلّ شيء مُنْتَهاه..ونَصْنصتَ الشَّيءَ حرَّكْتَه... وانتصَّ الشيءُ وانتصب إذا استوى واستقام "[1]

وجاء في المعجم البسيط: " ناصَّ غريمه : استقصى عليه وناقشه ، واتَّصل به ؛ يقال : هذه الفلاة تُنَاصِي أَرْضَ كذا ."[2] بمعنى تتصل بها.

وهكذا فالتناص في اللغة – في ضوء ما تقدم – ينطوي على عدة دلالات ؛ فهو الرفع ، والإظهار، والتجميع، والإسناد، والتوقيف ،والمنتهى ،والتحريك ، والتعيين ، والاستقصاء، والمناقشة، والاستواء، والاستقامة، والازدحام، والاتصال .

وفي كل هاته الدلالات والمعاني مايوحي -على نحو من الأنحاء – إلى مفهوم التناص بصيغته الحديثة ، خاصة دلالتي :(الازدحام والاتصال بما يتضمناه من معنى التعالق والتداخل) ، كيف لا ، و تداخل النصوص وتعالقها هو – من بعض الوجوه - ليس إلا اتصالها وازدحامها في نصٍّ ما.

والآن نأتي على **مفهوم التناص في الاصطلاح**. الحق أن التناص – كما أشرنا فيما مرَّ بنا - من المفاهيم النقدية الأساسية الحديثة ، كما تجدر الإشارة هنا ، إلى أنه قد نشأ وترعرع في أحضان الدراسات الألسنية في أول أمره .[3] ويطلق على التناص في الدراسات الغربية " Intertextuality " ، وأول من بلوره كمفهوم يُقْصَد به العلاقة بين النصوص تحدث بكيفيات مختلفة ، هو العالم الروسي (ميخائيل باختين) ، وذلك من خلال حديثه عن مفهوم (الحوارية) الدال على تقاطع النصوص و الملفوظات في الخطاب الروائي الواحد ، ناهيك عن حديثه عن (تعددية الأصوات) و (تعددية اللغات) التي تلتقي مع مفهوم الحوارية عند النظر إلى النصوص .

(1) ينظر: لسان العرب ، ابن منظور دار صادر– بيروت ،ج7، ص97 – 98 . مادة (نصَّ) .

(2) ينظر: المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية ، ط4، 2005، ص926– 927.مادة (نصَّ ونصص).

(3) ينظر: التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري، شربل داغر، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج(16) ع(1)،القاهرة،1997،ص127.

ISSN : 2410-1818

من هنا يمكن القول إن مفهوم الحوارية يمثل المهِّد الأول لظهور التناص ، ولاغرو ، فباختين يرى أن النص يدخل في حوارات مع نصوص سابقة .[4]

غير أن (جوليا كريستيفا) ، هي أول من تلقّف أفكار (باختين) حول حوارية النصوص لتنتهي إلى مصطلح يقارب مفهوم الحوارية ، ألا وهو (التناص) ، وقد كشفت عن ذلك في عام 1966 في كتاباتها في مجلة (Tel .Quel) و مجلة (كرتك) وفي كتابها (نص الرواية) وفي تقديمها لكتاب (دستوفسكي) لباختين ، وبهذا فقد أدخلته في حقل الدراسات الأدبية [5] . وترى كريستيفا أن: " كل نص يتشكّل من تركيبة فسيفسائية من الاستشهادات ، وكل نص هو امتصاص أو تحويل لنصوص أخرى "[6] .

ومن الجدير ذكره في هذا الصدد ، أنه قد تولّد عن مصطلح التناص هذا، مجموعة من المصطلحات ، ليصبح بمثابة البؤرة في مجال النقد الحديث ، ومن هذه المصطلحات التي انبثقت عن التناص : التناصية ، المناص ، المتعاليات النصية ، والميتانص وغيرها ، وقد قامت بممارسته جماعة" تل كل Tel .Quel " الفرنسية التي كانت كرستيفا أحد أعضائها "[7] .

على أن من المهم التنويه – هنا – إلى أن نقّادًا آخرين بعد كرستيفا ، قد وجّهوا جهودهم نحو هذا المصطلح ، بغية تطوير مفهومه وتوسيع آفاقه ، وقد كان لهم ذلك ، وليس ها هنا مجال بيان ذلكم ، ومن أبرز هؤلاء النقاد : رولان بارت وجيرار جينت وريفاتير وغيرهم .

وإذا ما عرّجنا إلى مفهوم التناص ونشأته في التراث الأدبي العربي ، فإن بوسعنا القول إن هذا المصطلح يعدُّ جديداً لظاهرة أدبية ونقدية قديمة ؛ حيث إن : " ظاهرة تداخل النصوص هي سمة جوهرية

(4) ينظر: – التناص وإنتاجية المعاني، حميد الحمداني، مجلة علامات في النقد والأدب – السعودية – جدة ، ج40، مجلد 10، 2001 ، ص67 .

– الخطاب الروائي، ميخائيل باختين، ترجمة محمد برادة ، دار الأمان ، المغرب – الرباط ، 1987، ص46

(5) ينظر : التناصية ، مارك أنجينو ، دراسة مترجمة ضمن كتاب آفاق التناصية ، ت: محمد خير البقاعي ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1998م ، ص 65،66.

(6) التناص نظريًا وتطبيقيًا، د. أحمد الزعبي ، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع ،الأردن ، ط2 ، 2000م، ص12.

(7) ينظر: شعرية الخطاب السردي، محمد عزّام ، منشورات اتحاد الكتاب العربي – دمشق ، 2005م ، ص116.

ISSN : 2410-1818

في الثقافة العربية حيث تتشكّل العوالم الثقافية في ذاكرة الإنسان العربي ممتزجة ومتداخلة في تشابك عجيب ومذهل "[8] .

ولعلَّ ظاهرة السرقات الشعرية ، فضلاً عن النقائض والموازنات و المعارضات الشعرية ، التي توقف عندها النقاد والأدباء والكتاب ، نقول لعلّها تعتبر نموذجًا ساطعًا لتأصُّل ظاهرة التناص في الثقافة العربية . زد على ذلك - أيضًا - المصطلحات التي سكّها البلاغيون العرب ، والتي عبّرت عن التناص – بشكل أو بآخر – ومنها : الاقتباس والتضمين والاستشهاد والتلميح والاحتذاء والأخذ والإغارة وغيرها من المصطلحات .

لكن لماذا لم يختر النقاد والدارسون العرب المعاصرون واحدًا من هذه المصطلحات القديمة الآنفة للدلالة على ظاهرة التداخل النصي بدلاً عن مصطلح التناص ؟ ونجيب : ذلك لما ينطوي عليه مصطلح التناص من الحياد والموضوعية ، والبعد عن شبهات الاتهام والمفاضلة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، نجد مرونة المصطلح ورحابته الدلالية ، وقابليته لاستيعاب صور من التأثر أوسع مما يتسع له غيره من المصطلحات " [9] .

وعلى أية حال ، فإن من الجدير الإشارة إليه في هذا السبيل ، أنه إذا كانت المناهج النقدية الغربية الحديثة وفتوحاتها الكبرى ، مناط احتفاء واهتمام السواد الأعظم من الباحثين والنقّاد العرب المحدثين ، فإن التناص بوصفه أحد أهم منتجات هذه المناهج وفتوحاتها الجذّابة ، قد حظي – على نحو خاص - باحتفاء واهتمام كبيرين من قبل كثيرين من هؤلاء النقاد والدارسين ، بدليل أنهم سارعوا إلى إعطاء التعريفات الكاشفة عن ماهية هذا المصطلح ، كما أنجزوا الكثير من الدراسات النظرية والتطبيقية التي دارت في فلكه ، ناهيك عن وقوعهم في إشكالية هذا المصطلح الناتجة – أصلًا – عن اختلاف مشاربهم وأفهامها ومدارسهم النقدية وتفاوت الترجمات أيضًا ؛ فهذا محمد مفتاح يطلق على التناص " التعالق النصي " ويعرفه بقوله : " هو تعالق – الدخول في علاقة – نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة " [10].

---

(8) ثقافة الأسئلة ، (مقالات في النقد والنظرية) ، د. عبد الله الغذّامي ، النادي الأدبي الثقافي السعودية- جدة - ، ط2، 1992، ص119.

(9) ينظر : من آفاق الفكر البلاغي عند العرب ، د. عبد الحكيم راضي ، مكتبة الآداب - القاهرة ، ط1، 2006، ص 49.

(10) تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – بيروت ، ط4 ، 2005 ، ص 120 – 121 .

ISSN : 2410-1818

أما محمد بنيس فقد استبدل مصطلح التناص بمصطلح " التداخل النصي " ، وهذا التداخل النصي من وجهة نظره ، يحدث نتيجة تداخل نص حاضر مع نصوص غائبة ، والنص الغائب هو الذي تعيد النصوص كتابته وقراءته أي النصوص المستترة التي يحتويها النص الحاضر ، وتعمل بشكل عضوي على تحقق هذا النص وتشكُّل دلالته [11].

وأما سعيد يقطين فيطلق عليه " التفاعل النصي " عادلًا عن استعمال " التناص " ذلك : " أن النص ينتج ضمن بنية نصية سابقة ، فهو يتعالق بها ، ويتفاعل معها تحويلًا أو تضمينًا أو خرقًا " [12] .

وأما عبدالله الغذّامي فقد أطلق على التناص مصطلح " تداخل النصوص أو النصوص المتداخلة " ، والنص المتداخل – حسب تعريفه - هو : " نصٌّ يتسرّب إلى داخل نص آخر ، ليجسِّد المدلولات سواء وعى الكاتب [أو المبدع عموماً] بذلك أم لم يع " .[13]

على أن مصطلح " التناص " - في نهاية المطاف – قد تغلّب على كل هاته المصطلحات السالفة الذكر وغيرها ، فارضًا نفسه وحضوره بقوّة في الأوساط النقدية والأدبية والثقافية بصورة عامة .

وعلى أية حال، فإن تعاريف التناص الآنفة الذكر ، قد دلّت عليه واكتنهت جوهره – فيما نعتقد – على الرغم من اختلاف صياغاتها ، وهذه التعاريف – كما هو جليٌّ – ليست إلا عالة على تعريف كرستيفا ، ودوران في فلكه .

ولعلَّه من المفيد - هنا - ختم هذه النقطة بتعريف للتناص يتسم – فيما نحسب – بالمقاربة الواضحة والشاملة لحقيقة التناص وجوهره ، ونعني به تعريف الناقد أحمد الزعبي ، الذي خلاصته أن التناص هو أن يتضمن نصٌّ أدبي ما نصوصًا أو أفكارًا أو معارف أخرى سابقة عليه ، بحيث تندمج النصوص السابقة مع النص الأصلي مشكّلة نصًّا جديدًا موحدًا متكاملاً [14] .

(11) ينظر: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب العربي ، دار العودة ، بيروت ، ط1، 1979، ص251، 252.

(12) انفتاح النص الروائي (النص والسياق) ، المركز الثقافي العربي ، المغرب – الدار البيضاء ، ط1 ، 2001، ص98.

(13) الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشريعية ، النادي الأدبي الثقافي السعودية– جدة– ،1985م،ص 320.

(14) ينظر : التناص نظرياً وتطبيقياً ، م.س ، ص11.

ISSN : 2410-1818

ولمّا كان التناص على هذا النحو من الحظوة والاهتمام لدن النقّاد والدارسين العرب ، فقد ألفيناهم يستغرقون في تفاصيل ماهيته ، من خلال عملية اجتهادية محاولين استجلاء قوانينه (مستوياته) التي تحدد علاقة النص الغائب بالنص الماثل ، فقد حُدِّدت بثلاثة قوانين على النحو الآتي :

1- **الاجترار** : وفيه يستمد الأديب من عصور سابقة ، ويتعامل مع النص الغائب بوعي سكوني ، فينتج عن ذلك انفصال بين عناصر الإبداع السابقة واللاحقة ، ويمجّد السابق ، حتى لو كان مجرد شكل فارغ ، بمعنى أكثر وضوحًا ، إنه يعيد كتابة النص الغائب بشكل نمطي جامد لا حياة فيه .

2- **الامتصاص** : وهو أعلى درجة من سابقه , وفيه ينطلق الأديب من الإقرار بأهمية النص الغائب ، وضرورة امتصاصه ، ضمن النص الماثل ، كاستمرار متجدّد . بتعبير أوضح ، إن الشاعر أو الأديب يعيد كتابة النص الغائب وفق متطلبات تجربته ووعيه الفني بحقيقة هذا النص شكلًا ومضمونًا .

3- **الحوار** :هو أعلى المستويات الثلاثة ، إذ يعتمد على القراءة الواعية المعمّقة التي ترفد النص الماثل ببنيات نصوص سابقة ، معاصرة ، أو تراثية ، فتتفاعل فيه النصوص الغائبة والماثلة في ضوء قوانين الوعي واللاوعي [15].

كما استمرّ هؤلاء النقاد في اجتهادتهم حول التناص فأخذوا في تقسيمه إلى : تناص خارجيّ وتناص داخليّ ، والأول : يقصد به تناصّ المنشئ مع نصوص غيره ، والثاني : تناصاته مع نصوصه المختلفة (التناص الذاتي) . [16] وأيضًا تم – في إطار التنظير والاجتهاد - تعيين نوعين من التناص ؛ أولهما التناص المباشر، وفيه تبرز تقنيات الاقتباس والتضمين والاستشهاد وغيرها ، تعبيرًا عن اتكاء الأديب على نص (ما) بلغته التي وردت فيها الآيات والأحاديث والأشعار والقصص مع الأخذ بعين الاعتبار طبيعة المرجعية (تاريخية أم دينية أم أدبية ...) . أما النوع الثاني فهو التناص غير المباشر حيث يستنتج استنتاجًا ، وهو يدخل في دائرة تناص الأفكار أو المقروء الثقافي ، ويدخل ضمن التناص غير المباشر أيضًا تناص اللغة والأسلوب[17].

---

(15) ينظر : النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)،محمد عزام ، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، ط 1 ، 2001 ،ص53. و ظاهرة الشعرالمعاصر في المغرب الغربي ، محمد بنيس ، م.س ، ص 253.

(16) ينظر : تحليل الخطاب الشعري ، محمد مفتاح ، م.س ، ص 119. وينظر : أيضًا ، النص الغائب ، محمد عزام ، م.س ، ص 52.

(17) ينظر : التواصل في شعر عز الدين المناصرة ، صادق عيسى الخضور ، دار المجدلاوي للنشر والتوزيع – عمان ، ط1، 2007 ، ص107.

ISSN : 2410-1818

وبصفة عامة ، فإن النقاد لم يتفقوا حول وضع تقسيم حاسم لأنواع التناص وأقسامه ؛ إذ كثرت اجتهاداتهم في هذا الباب ، غير أننا ، في دراستنا هذه ، قد ارتضينا أربعة ألوان من التناص ، هي : **التناص الاستشهادي الاقتباسي ، والتناص الإحالي ، والتناص التلميحي الإشاري ، والتناص الأسلوبي** [18].

وأياً كان الشأن ، فلا حاجة بنا للاسترسال في الحديث عن التناص نظريًّا ، ذلك أن غاية الدراسة ومنطلقها - في ضوء ما يحكي عنوانها - تطبيقي خالص ، **وإنما غايتنا – بطبيعة الحال – من هذا الإطارالنظري ، هو توظيفه الفعلي في خدمة المتن التطبيقي .**

❁❁❁

أهمية التناص مع القرآن الكريم :

الواقع أنه لمّا كان القرآن الكريم كتاباً سماويًّا معجزًا للإنس والجن ، حتى إنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله، بل بآية من مثله ، ولمّا كان هذا الكتاب المقدّس متسنِّمًا ذروة البيان والفصاحة والبلاغة ممتلكًا زمام اللغة العليا ، نقول لمّا كان كذلك فقد ألفينا الشعراء والكتاب يوظفونه في إبداعاتهم المختلفة ومنها الشعر.

ولاغرابة فقد كان للقرآن الكريم : " آثار بعيدة المدى في الحياة الفكرية، وتطور اللغة وأساليبها بما جاء به من أساليب رفيعة ، وتنسيق لم يألفه العرب في أقصى درجات البلاغة ، فجعل الأدباء يقتبسون من عباراته ومعانيه ، مكتسبين في خطابتهم وكتاباتهم طرق المنطق والحوار ، ونأى الشعراء عن مهازل الجاهلية وعفّ لسانهم بتهذيب الأسلوب القرآني " [19].

ولاشك أن هذا الشاعر أو الناثر، عندما يعمد إلى توظيف القرآن في إبداعه ، غايته الأساسية ، من وراء ذلك ، الارتقاء بأسلوبه وخدمة المعنى الذي يرومه . بعبارة أدق ، إنه يسعى إلى تخصيب معانيه وأفكاره ومنحها عمقًا وقَوّةً ، بل ومصداقية وقداسة من خلال هذا التوظيف .

ولا عجب فالقرآن ذو سلطة تأثيرية قوية، ومن ثَمَّ فهو يجعل النصوص الأدبية ، سواء كانت شعرية أو نثرية ، تكتسب شيئًا من هذه السلطة التأثيرية الآسرة والمهيمنة ، وذلك لأن القرآن العظيم يتدفق

---

(18) ينظر : التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر ، عصام واصل ، دار غيداء – عمّان ، ط1، 2011، ص 78، 95 ، 109، وينظر أيضًا : نظرية التناص ، جراهام ألان ، ترجمة د. باسل المسالمة ، دار التكوين ، دمشق ، ط 1، 2011م ، ص 269 .

(19) دراسات في الأدب الحديث ، د. محمد سعد الدين الجيزاوي ، دار نهضة مصر للطابع والنشر ، (د. ط) ، (د. ت) ، ص 28.

ISSN : 2410-1818

بمعناه ومبناه على هذه النصوص بما يكتنزه من قيم إنسانية و أخلاقية ومعان كونية ، وأساليب بيانية وجمالية آسرة ، الشيء الذي دفع الكتاب خاصة الشعراء منهم – حسبما أشرنا قبلاً – دفعهم إلى النهل من ينبوعه المتفجِّر : جمالاً وروعة وبيانًا .

ولعلَّ هذا التوجه نحو القرآن ، يصدق على شعراء الخوارج بخاصة وأدبائهم بعامة أكثر من سواهم ، حتى ليكاد يكون هو المصدر الأساسي لثقافتهم ، كيف لا ، وقد : " كان القرآن الكريم عنصرًا حيًّا قوي الأثر في حياتهم ، استشهدوا بآياته في تأييد وجهات نظرهم وتمثّلوا به في أحوالهم المختلفة " [20]. حتى لنستطيع القول إن الخوارج كانوا أكثر الفرق الدينية والأحزاب السياسية تلقُّفًا للقرآن وأشد إقبالاً عليه حفظًا وتشرُّبًا ، ولا أدل على ذلك من أن الحجاج سأل سبرة بن الجعد : هل قرأت القرآن ؟ فقال سبرة : حفظته في صدري [21] .

وثمة ملحظ مهم يؤكد على تأثر الخوارج بالقرآن الكريم كلَّ التأثُّر ، ألا وهو اعتمادهم في تسمية جماعتهم وحزبهم على خلفية قرآنية جلية ؛ فهم الخوارج من قوله تعالى : " وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا" [22] . وهم المحكِّمة كذلك من قوله تعالى : " قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ "[23] . وهم الشُّراة أيضاً من قوله تعالى : " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ" [24] . ومن هنا ، ندرك مدى الارتباط القوي ، إن لم نقل العضوي ، بين الخوارج والقرآن الكريم منذ اللحظة الأولى لنشأتهم .

وبالفعل فإن من يقف على ديوانهم ، يجد أنهم قد تفاعلوا مع النص القرآني وأعادوا كتابته في نصوصهم ، من خلال تقنية التناص ، وفق مستويات تناصية مختلفة ، بهدف إثراء المضمون وإغناء هذه النصوص بقيم دلالية وشكلية ورمزية وجمالية وفكرية متعددة ، فضلا عن منحها لونًا من القداسة .

---

(20) أدب الخوارج في العصر الأموي ، سهير القلماوي ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر – القاهرة ، 1940، ص 41.

(21) ينظر: تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي . د.شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط9 1981م ،ص 33 .

(22) سورة النساء ، الآية 100.

(23) سورة الأنعام ، الآية 57.

(24) سورة البقرة ، الآية 207 .

ISSN : 2410-1818

وكل أولئك تمثّل جُلَّ وظائف التناص، وهو بهذا – أي التناص - يشكّل آلية فنية جمالية تضيف إلى النص بعداً جماليًّا وفنيًا يكون من شأنه إدهاش المتلقي / القارئ ، واستدراجه إلى وهج النص المشتهى .

ولا ريب أن توظيف الشعراء الخوارج للقرآن في شعرهم ، هو توظيف قصديّ بامتياز ، بمعنى أنه لم يأت عفو الخاطر أو مصادفة ، أو بغية تحقيق حلية لفظية أو نغمة طربية ، بل لقد وظّفوه بوعي دقيق – كما ستجلو ذلك القراءة التطبيقية - حتى غدا جزءًا أصيلاً من مكونات نصّهم الشعري ، الذي توخّوا من ورائه ، وهم فرقة دينية سياسية، الدفاع عن مذهبهم ، والتناص مع القرآن – بالقطع – كان إحدى أهم وسائل الحِجَاج والمناظرة والتأييد واستخلاص العبر لديهم ، هذا بالإضافة إلى تحقيق وظائف التناص الأخرى التي ألمحنا إلى جلّها فيما مرّ بنا منذ قليل.

بكلمات أخيرة وحاسمة ، إن استدعاء النص القرأني ، والتناص معه في الخطاب الشعري ، أيًا كان نوعه ، يعني إعطاء مصداقية وتميُزًا لدلالات النصوص الشعرية ، انطلاقًا من مصداقية الخطاب القرآني وقداسته وإعجازه ؛ فأكثر المبدعين أصالة ، من كان تركيبه الفنّي ذا طبيعة تراكمية .[25]

❁❁❁

تجلّيات التناص القرآني في شعر الخوارج:

لا نعدو الحقيقة إذا ماقلنا إن النصَّ القرآني/ أو الخطاب القرآني ، يشكّل مكونًا جوهريًّا وأصيلًا من مكونات شعر الخوارج ، إلى درجة أن عين القارئ لهذا الشعر لا تخطئ هذا الحضور القرآني ؛ حيث تطالعه مبثوثًا متمازجًا في نسيج هذا الشعر لحمةً وسداةً ، الشيء الذي كان من شأنه الإسهام بقوّة في صنع الدلالة وإنتاجها في شعر الخوارج .

وبتفحُّص شعر الخوارج وتأمُّل تناصاته مع القرآن الكريم ، يمكننا القول إن التناص القرآني في شعر الخوارج ، قد تجلّى في ألوان متعددة ، بوسعنا تجليتها على النحو الآتي :

1. **التناص الاستشهادي/ الاقتباسي:**

وهذا اللون من التناص يمثّل الحضور الفعلي لنص ما دخل في نص آخر بشكل صريح ومعلن ، ويقابل الدرجة العليا لحضور نصٍّ في نصٍّ آخر حضورًا واضحًا وحَرْفيًا ، إلى حد أنهما يصبحان مندمجين حتى يغدوا كتلة واحدة غير متشظية.[26]

(25) ينظر : قراءات أسلوبية في الشعر الحديث ، د. محمد عبد المطلب ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1995 ، ص 162 .

(26) ينظر : التناص التراثي، م .س ، ص78.

ISSN : 2410-1818

وبالقراءة الفاحصة لشعر الخوارج ، نجد هذا النوع من التناص حاضرًا فيه على نحو لافت ؛ فهذه مليكة الشيبانية ترثي أخاها الحازوق الخارجي قائلة [27] :

ويحوط المولى ويصطنع الخير فيُجْزَى الإحسان بالإحسان

فالملاحظ أن الشاعرة – هنا - قد استلهمت عجز البيت لفظًا ودلالة و قافية من قول الله تعالى : "هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إلا الإحْسَانُ "[28] .

والواضح أنّها قد تغيّت من هذا التناص – في سياق الرثاء - الارتقاء بأخيها الشهيد / المرثي ، والتحليق به في آفاق الصالحين ليُجْزى الجنة ، انطلاقًا من كونه أحسن بعمله في الدنيا ، كيف لا ، وقد عمدت إلى تصويره محسنًا استثنائيًّا تدثَّر بثياب الرحمة والشفقة وهو يحمي الموالي تلك الفئة المستضعفة من الناس ، كما أنه كان يجتهد في صناعة الخير باندفاع واجتراح صادقين بدليل الفعل المضارع (يصطنع) على وزن (يفتعل) ، والذي دلّ بما فيه من زيادة في المبنى أدَّت إلى زيادة في المعنى ، نقول دلّ على استغراق المرثي في عمل الخير ، ومن ثَمّ فإن جزاء هذا الإحسان في الدنيا من قبل المرثي ، إحسان ينتظره في الآخرة يمنحه الله تعالى إياه ، ألا وهو الفوز بالجنة ، وما كان لهذا المعنى أن يتحقق على هذا النحو من الفاعلية المؤسَّسة على المنطقية الملفعة باليقين ، لولا التناص مع الآية الكريمة مبنى ومعنى ، ذلك أن كلام الله هو الحقُّ والصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن الملاحظ أن ثمة تغييرًا وتحويرًا في التشكيل اللغوي ؛ فقد جاء البنيان القرآني في المنطوق الشعري مختلفًا بعض الاختلاف عما هو عليه في القرآن ، إذ ورد بدون الاستفهام بـ (هل) كما جاء المصدر (جزاء) فعلًا (يُجْزى) ناهيك عن استبدال (إلا) بـ (الباء) . وهذا انزياح يعكس تناصًّا خلّاقاً .

ويستمرُّ هذا اللون من التناص ، يطالعنا في سياق إبراز مناقب شهداء الخوارج . تقول مليكة الشيبانية أيضاً في رثاء الضحّاك بن قيس [29] :

ذهب الذي قد كان يأمُرنا بالخير والمعروف والذِّكْرِ

(27) ينظر : ديوان الخوارج ، تحقيق : نايف معروف ، دار المسيرة ، ط 1 ، 1983 ، ص203.

(28) سورة الرحمن ، الآية 60.

(29) ديوان الخوارج ، ص202.

ISSN : 2410-1818

وهنا نرى أن الشاعرة قد ارتشفت ، مع شيء من الانتقاء والتحوير الخلاّقين ، معظم مكونات هذا البيت لفظًا وتركيبًا ودلالة ، ارتشفته من قوله تعالى : " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[30] . ويتجلّى الانتقاء في الاقتصار على الفعل المضارع (يأمرنا) بما هو مملوء بدلالة الإلزام بدلاً عن تعدد الأفعال كما في الآية الكريمة ، وهذا يشير إلى عظم مكانة الضحَّاك لدى جماعته الخارجية ، ولا أدلَّ من أنه يأمر وهم يطيعون وأهمية التناص وفاعليته في البيت ، تكمن في أنه يؤكد - من جهة أخرى - مدى اتباع المرثي لما يدعو الله إليه من عمل الخير ويأمر به من انتهاج المعروف والذكر ، بل وترجمة ذلك من خلال خلال أمر جماعته الخارجية بما دعا الله وأمر به من هذه القيم الجليلة ، وبالتالي فإن رحيله إن كان يمثل خسارة كبيرة لداعية وقائد من قواد جماعة الخوارج فإنه - في الوقت نفسه - يمثل أيضًا رحيلاً لمؤمن لا خوف عليه من لقاء ربه ، ذلك أنه كان متمثلاً وممتثلاً لما يحبه الله ويرضاه.

❁❁❁

ولمّا كان الخوارج يرون أنفسهم الفئة المؤمنة التي تمثل الحق، وسواهم من الجماعات الإسلامية كفَّارًا ، فقد ألفيناهم يستدعون آيات القرآن الكريم ، على سبيل التناص ، خاصة التي تصدق عليهم في هذا الأفق من خلال توظيفها في شعرهم ، بغية الاستدلال بها على نصر الله لهم بوصفهم مؤمنين ، حتى ولو كان عددهم قليلاً محدودًا . يقول عيسى الخطيّ .[31]

أألفا مؤمـــن فيـــما زعَمْتُـــم	**ويهزمهم بآسكَ أربعونـــا**
كَـــذَبْتُم ليس ذاك كما زعمتم	**ولكن الخوارج مؤمنونـــا**
هم الفئة القليلة غيـــر شـــكٍّ	**على الفئة الكثيرة يُنْصَرونا**
أطـعتم أمر جبّـــارٍ عنيـــــدٍ	**وما من طاعة للظالمينـــا**

تتصاعد في هذه النسيجة الشعرية ، أنفاس التناص مع القرآن الكريم وآياته بدءًا من المطلع ؛ حيث يمثل البيت الأول امتصاصًا ساطعًا لقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ" [32] .

---

(30) سورة آل عمران ، الآية 104.

(31) شعر الخوارج ، جمع وتحقيق د. إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط (2) ، 1974 ، ص 54-55.آسك: بلدة في إيران .

(32) سورة الأنفال ، آية 65 .

ISSN : 2410-1818

كما يمثل البيت الثالث امتصاصًا واضحًا لقوله تعالى : "فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" (33).

أما البيت الرابع ففيه تناص واضح أيضًا مع قوله تعالى : " وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" (34)

وجليٌّ كل الجلاء ، أن الشاعر الخارجي قد استدعى دوالّ ومدلولات الآيات القرآنية الآنفة ليرصِّع بها نصَّه ، أو بالأحرى يشكِّله ، فبدت نسيجته الشعرية متواشجة ومتماهية مع النسيج القرآني على نحو خلّاق ، إذ رام الشاعر إثبات أن الخوارج – بالفعل – هم الفرقة المؤمنة دون غيرهم ، بدليل أن عددًا محدودًا منهم و قوامه أربعون مقاتلًا بقيادة مرداس الخارجي ، نقول استطاع هذا العدد المحدود - على قلّته – الانتصار على جيش الأمويين المكوّن من ألفي مقاتل ، ذلك الجيش الذي أرسله عبيد الله بن زياد إلى منطقة الأهواز لقتال الخوارج ، ولما أدرك الشاعر – فيما نعتقد – أن المتلقي حتماً لن يقتنع بأنه يمكن لأربعين مقاتلًا أن يهزم ألفين ، فقد لجأ إلى التناص مع آيات القرآن الثلاث الآنفة الذكر بغية الاستدلال والبرهنة ليصرف الكذب عن نصّه ، حيث أكّدت الآيات التي استشهد بها على أن المؤمنين -على قلّة عددهم - يكون النصر حليفهم حتمًا ؛ لأنهم يقاتلون بإيمان وحماس ويصبرون وقت الشدائد ، ناهيك بكون الله معهم يمدهم بنصره . ومما عاظم من فاعلية التناص التصرُّف الخلّاق في التشكيل اللغوي الأسلوبي ، سواء من خلال الاستفهام الاستنكاري التعجبي التوبيخي الماثل في البيت الأول :(أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسكَ أربعونا ؟!) ، أو من خلال إسناد الأفعال السلبية الناجزة من حيث ماضويتها إلى الطرف المعادي للخوارج وهذه الأفعال تمثَّلت في : (زعمتم [مرتين] – كذبتم – أطعتم أمر جبار عنيد) ، في حين أسندت أو ارتبطت الأفعال الإيجابية بالجماعة الخارجية ، نحو (يهزمهم – ينصرونا) .

وهكذا فقد تجلّت هذه النسيجة فسيفساء تناصية ، فقد استدعى الشاعر أكثر من آية قرآنية ، مازجاً إياها في نصِّه ، ليحقق من وراء ذلك تعالقًا مع القرآن على مستوى اللفظ و الدلالة.

❁❁❁

(33) سورة البقرة ، آية 249 .

(34) سورة هود ، الآية 59 .

ISSN : 2410-1818

ولا يني الشاعر الخارجي يوظّف النص القرآني ، في خطابه الشعري ، بغية تدعيم و إثراء ما يلهج به من انثيالات شعرية ، تحوم في أفق عقيدته الخارجية وأتباعها ونضالاتهم ، فضلاً عن تحقيق أغراض تصبُّ في خدمة هذه العقيدة وهؤلاء الأتباع ، ومن هذه الأغراض ، إبراز الخوارج جماعة جهادية استثنائية ، لا سيما وهي تتّبع في قتالها الطرق التي يحبها الله ويرضاها في المجاهدين في سبيله . يقول الرهين المرادي (35):

تخالُ صفَّهُمُ في كلِّ مُعْتَرَكٍ للموتِ سوراً من البنيان مرصوصا

وهنا نجد الشاعر يرتشف هذا البيت من آية كريمة هي قوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ" (36) .نقول يرتشفه لفظًا وتركيبًا ومعنى ليرسم الصورة / الحال ، التي يحب الله أن يجسدها – عمليًّا - المقاتلون في سبيله ، إذ يحبهم متماسكين متلاصقين ، ككتلة واحدة ، تماماً كالبنيان المرصوص ، على أن الشاعر رغم تعالقه مع النص القرآني : لفظًا وتركيبًا ودلالة وصورة ، إلا أن هذا التعالق ليس على سبيل الاستشهاد والاقتباس الكامل ، وإنما هو تعالق جزئي خلّاق دَاخَلَه شيء من التصرُّف البنائي اللغوي ، ذلك أن اصطفاف الخوارج أو صفهم في كل معاركهم ، نقول إن هذا الاصطفاف أو الصف الواحد يتخذ طابعًا خاصًا يغاير قليلًا الصف الوارد في الآية الكريمة ، وذلك من حيث هو عبارة عن سور من البنيان المرصوص ، وليس بنيانًا مرصوصًا ككتلة واحدة ، كما في الآية ، ولا شك أن تشبيه اصطفاف الخوارج وصفهم بالسور ، من خلال التشبيه البليغ ، وعلى هذا النحو من التحديد ، قد جعلنا أمام مشبّه به بدا نظيرًا تجسيديًّا مماثلًا لطبيعة الصف الواحد المتماسك الممتد المتلاصق المحكم الذي لا فرجة فيه ، الأمر الذي أثرى الدلالة المتوخاة وبالطبع فإن استحضار (البنيان المرصوص) من النص الغائب (القرآن) يأتي اعتمادًا على ما هو كامن في ذهن المتلقي الذي يدرك حقيقة ذلك أيما إدراك ، وهنا يتعاظم – بفضل التناص - تكثيف المعنى لديه أيما تعاظم. وهنا يمكن القول مع د.محمد مفتاح : " بأن اعتماد الشاعر على ذاكرة المتلقي وثقافته حمله على التناص ، فأعاد نماذج مرتبطة بثقافة المتلقي السامع " .(37)

❁❁❁

(35) شعر الخوارج ، ص 62 .

(36) سورة الصف ، الآية 4 .

(37) تحليل الخطاب الشعري ، م . س ، ص131 ، 134.

ISSN : 2410-1818

ويوغل الشاعر الخارجي متوسلًا بالتناص ، بغرض الكشف عن الحالة النفسية / الشعورية التي تتملّك على الخوارج نفوسهم ، فنراه يعمد إلى استكناه ما يختلج في صدورهم من مشاعر الوجل والخوف عند تذكيرهم بالله أو ذكرهم إيَّاه. يقول قيس بن الأصم الضبيّ : (38)

إني أدينُ بما دان الشُّراةُ بـــــه	يومَ النخيلةِ عند الجوسقِ الخربِ
النافرين على منهاجِ أوّلِهـــــم	من الخوارج قبلَ الشكِّ والريـــبِ
قوماً إذا ذُكّروا بالله أو ذكـروا	خَرُّوا من الخوفِ للأذقان والرُّكبِ

وبتأمُّل البيت الأخير نجد أنه يتقاطع في نظمه ويتمازج في وقعه مع ثلاث آيات قرآنية ، الأولى قوله تعالى : " إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ " (39) . والثانية قوله تعالى : ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾(40) أما الثالثة والأخيرة فقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾(41).

والساطع أن الشاعر – هنا - قد استلهم الآيات القرآنية الآنفة : دوالّ ومدلولات وصورة ، وذلك لتصوير الحالة النفسية و السلوكية التعبدية التي تتملّك الخوارج إذا ما ذُكِروا بآيات الله ، نقول استلهم الآية وامتصها مسقطًا تصويرها على أصحابه الخوارج ، بهدف تصوير مدى الخشوع الذي يتملّكهم عند سماع الذكر أو تذكره ، حيث يهوي بهم سُجّدًا وعلى وجه السرعة ، الشيء الذي أوحى به الفعل (خرّوا) **الفعل – الصورة** - إذا صح التعبير - كيف لا ، وقد جعل خيالنا يطالع تلكم الحركة السريعة كما لو كانت ومضة خاطفة كالبرق.

(38) شعر الخوارج ، ص125.

(39) سورة السجدة ، الآية : 15.

(40) سورة الإسراء ، الآية : 107.

(41) سورة مريم ، الآية : 85.

ISSN : 2410-1818

باختصار شديد إن هذا الفعل المسند إلى الشراة يتضمن كناية ساطعة عن سرعة الاستجابة ، ثم إن سجود هذه الجماعة الخارجية هو سجود يبلغ الأذقان ، كناية عن حرصهم البالغ على إتمام سجودهم وإسباغه.

على أن غاية الشاعر من توظيف التناص – ها هنا – هو التجاوب مع مذهب الخوارج الذي يعدهم الفئة المؤمنة الوحيدة بالله ، أما سواهم من الفرق الدينية فليسوا إلا جماعات ضالّة كافرة مصيرها جهنم الحمراء ، وفي هذا الصدد نجد شاعرًا خارجيًّا آخر يتناص مع القرآن الكريم ، كيما يؤكد حتمية هذه النهاية لغيرهم من الفرق الدينية. يقول عمران بن حطّان [42].

دعَتْهُمْ بأَعلى صوتِها ورمتْهُمُ بمثل الجمالِ الصُّفْرِ نَزَّاعةُ الشَّوى

يطالعنا في هذا البيت مشهد تصوري بالغ الترويع ، وهذا المشهد ما كان له أن يكون على هذا النحو من القوة والتأثير وعمق الدلالة وبديع التصوير ، لولا امتصاص آيات من القرآن الكريم ، كان من شأنها أن عاظمت من فاعليته ودلالته .

إننا نرى ، من خلال هذا البيت ، نار جهنم قوة كاسحة نشطة ،حيَّة متحرِّكة ، تتحكَّم بالفعل والفاعلية التدميرية تجاه أتباع الجماعات الدينية الكافرة غير الخوارج ، في حين يبدو هؤلاء الأتباع مستسلمين خانعين ، أو لنقل ، مجالًا لعذاباتها القاسية ، وفاعليتها الفتاكة ، التي تراءت أول ما تراءت في أن هذه النار أخذت تدعوهم بعلو صوت نيرانها المتقدة ، ولهيبها الصائت ، تدعو هؤلاء الأتباع المكذبين الضالين المجرمين لترميهم بشرر كبير الحجم عظيم ككرة النار الضخمة ، كأنه جمال صفراء ، أي إبل سوداء لكثرتها وتتابعها وسرعة حركتها وفظاعة لونها ... وغير خاف أن الشاعر قد امتص هذا البيت من قوله تعالى :" كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى"[43] وأيضاً من قوله تعالى: " إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ"[44] .

وتوظيف التناص – هنا - كان من شأنه تكثيف المعنى المراد وخدمته ، لا سيما وأنه كان متواشجًا ومتماهيًا مع الآيتين القرآنيتين لفظًا وتركيبًا ومعنى وصورة ، لكن في أفق واضح من التعديل والتصرُّف الخلّاقين اللذين يعكسان براعة الشاعر الخارجي في استلهام التناص، وحسن توظيفه . ويتجلى التصرُّف في مجئ الفعل (ترْمي) في التعبير القرآني مضارعًا في حين جاء في المنطوق الشعري فعلًا ماضيًا (رمتهم)

(42) شعر الخوارج ، ص 156.

(43) نزاعة الشوى : جهنم ، الجمال الصفر : سود الإبل ، وتسميها العرب صفرا للكثرة والتتابع وسرعة الحركة وفظاعة اللون.

(44) سورة المرسلات الآيتان 32،33.

ISSN : 2410-1818

ولكل دلالته ، فالفعل المضارع يدل على استمرار الفاعلية ، بينما الماضي يدل على نجاز هذه الفاعلية وتحققها . وأيضًا مجئ التركيب الوصفي (الجمال الصفر) معرفة في البيت الشعري ، في حين ورد في القرآن نكرة (جمالة صفر) ولكل دلالته.

ولئن كان توظيف التناص السالف البيان ، غايته جلاء النهاية المروعة ، والجزاء الأوفى لأتباع الفرق الدينية من غير الخوارج ،ألا وهو جهنم الحمراء – حسب ما رأينا منذ قليل – فإن ثمّة تناصات شتى مع القرآن خلصت لوجه بيان الجزاء الذي أَعَدَّه الله للخوارج ، ألا وهي الجنة بما فيها من غرف عالية تجري من تحتها الأنهار . يقول حبيب بن خدرة :[45]

أبكي الذين تبوءوا الغُرَفَ العُلَى فَجَرَتْ لهم من تحتها أنهارُ

فبمجرد قراءة هذا البيت وتأمله ، نجده يحيلنا إلى قوله تعالى :" وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ "[46]

والواضح أن الشاعر قد امتصّه من الآية الآنفة ، لفظًا وتركيبًا ودلالة و تصويرًا. غير أنه – على الرغم من ذلك – قد أجرى تحويرات تخدم المعنى الشعري المقصود ؛ حيث جعل الجزاء (= الجنة) يبدو أمراً محسوماً ومتحققاً ، على عكس الآية التي يبدو فيها هذا الجزاء مستقبلياً ، ولا أدلّ على تحقق هذا الجزاء من استخدام فعلين ماضيين ، هما : (تبوءوا) المسند للجماعة الخارجية المرثية ، والفعل (جرت) المسند للأنهار التي جاءت نكرة (أنهار) حتى تدلَّ على العموم والشمول.

ولمّا كانت الشهادة أو الموت في سبيل الله ، الهدف الأول بل والأخير بالنسبة للخوارج ، فقد ألفينا الشاعر الخارجي يتناص مع القرآن الكريم ، وهو يدعو الله – سبحانه – أن يرزقه الشهادة . تقول أم عمران الخارجية في رثاء ولدها :[47]

يدعوهِ سرّاً وإعلاناً ليرزُقَهُ شهادةً بيدي مِلْحادة غُدَرِ

(45) شعر الخوارج ، ص211.

(46) سورة العنكبوت ، الآية 58.

(47) شعر الخوارج ، ص 73.

ISSN : 2410-1818

الواضح أن الشاعرة قد ارتشفت (سرًّا وإعلانًا) هذه الصيغة الماثلة في البيت من قوله تعالى :" الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ "(48).

بيد أن التناص – هنا – هو تناص في اللفظ وفي المعنى مع اختلاف في الموقف فصيغة (سرًّا وإعلانًا) في البيت مرتبطة بدعاء عمران في السر والإعلان أن يرزقه الله الشهادة في سبيله ، في حين ارتبطت هذه الصيغة في الآية بعمل الخير وإنفاق المحسنين أموالهم على نحو يجمع بين السرِّ والعلن ، ومن المهم الإشارة ، إلى أن الفعل المضارع (يدعوه) المسند إلى المرثي (عمران) قد أسهم في تقوية المعنى الناتج عن التناص ، وذلك من حيث دلَّ على استمرارية المرثي واستغراقه الدعاء ليرزقه الله الشهادة في سبيله ، وهو ما كان .

والحق أن السعي إلى الاستشهاد في سبيل الله ، أو طلب الموت ، يمثل الوحدة الأولى من الوحدات الثلاث في الشعر الخارجي – حسب الدكتور إحسان عبّاس – وتتجلّى في (وحدة الغايات) التي تشكّل النقطة التي تلتقي عندها أحلام كل واحد من الخوارج(49).

ومن هنا فلا غرابة ، أن وجدنا الشعراء الخوارج يحرصون على ترديد هذه الفكرة في أشعارهم ، مع حرصهم - في الوقت نفسه - على التناص مع آيات القرآن الكريم التي تمجّد هذه الفكرة ، بل أكثر من ذلك ، ألا وهو ارتباط اسمهم المزدوج بهذه الفكرة ؛ سواء (الخوارج) من الخروج في سبيل الله ، أو (الشُّراة) من بيع النفس في سبيل الله أيضًا . ومن التناص مع القرآن في هذا الأفق قول معدان الإيادي :(50)

سلامٌ على من بايع الله شاريًا وليس على الحزْبِ المقيمِ سلامُ

وقول معاذ الطائي : (51)

ألا أيُّها الشَّارون قد حان لامرئ شَرَى نفسه لله أن يترحَّلا

(48) سورة البقرة ، الآية 274.

(49) ينظر مقدمة شعر الخوارج ، م.س ، ص 10.

(50) شعر الخوارج ، ص 31.

(51) نفسه ، ص 45.

ISSN : 2410-1818

وقول عمرو الرَّبعيّ :(52)

قل للمولَّى على الإسلام مؤتنفاً وقد يـــرى أنه رثُّ القوى واهِ

أَنَّا شرينـا بدينِ الله أَنْفُسَنـــا نبغي بذاك إليه أعظمَ الجـاهِ

وبقراءة فاحصة للأبيات الآنفة ، نجد أنها ليست إلا امتصاصًا وتشرُّبًا – على وجوه مختلفة – لقوله تعالى : " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ "(53).

والتناص – هنا – فيما يبدو غايته تحقيق أمرين : الأول ، التأكيد للمتلقي – على سبيل اليقين المطلق - أن الخوارج ، هم الفئة الوحيدة من الناس المقصودة في الآية المذكورة دون غيرهم ، ومعلوم أن من (للتبعيض) والواردة في صدر الآية القرآنية ؛ ذلك أنهم من يعشقون الموت في سبيل الله ، حتى إنه أشهى إليهم من العسل ، كما قال شاعرهم البهلول. والأمر الثاني : التأكيد على اتِّباع الخوارج وترجمتهم - فعليًّا - لما يريده الله تعالى أَلا وهو بيع النفس وبذلها في سبيل الله.

وبإرجاع البصر والبصيرة كرَّتين لتأمُّل الأبيات في تمازجها مع التناص ، نلحظ أن هذه الفكرة المركزية في الايدلوجيا الخارجية تتراءى في شعر الخوارج ترائيًا ساطعًا ، ونعني بذلك فكرة (بيع النفس في سبيل الله) ، نقول نلحظ أنَّها قد جاءت في الأبيات بصيغ ماضيه للدلالة على تحقُّقها بالنسبة للخوارج كما في التالي: (بايع الله شاريا - شرى نفسه لله - أنَّا شرينا بدين الله أنفسنا) ، بينما وردت في الآية المتناص معها بصيغة المضارع (يشري نفسه) وذلك لكون الخطاب القرآني ممتد ومستمر ودائم.

وإن مما زاد من هذه اليقينية استخدام الأسلوب الإنشائي (النداء) في : (ألا أيها الشارون) المملوء بدلالة التبشير ، وأيضًا استخدام أساليب خبرية تحمل الطابع التأكيدي كما في : (شرى نفسه - أنا شرينا بدين الله أنفسنا) .

❁❁❁

ولمّا كان الشِّعار الذي اعتمده الخوارج في حركتهم ، هو : (**لا حكم إلا لله**) ، متجاوزين غيرهم من الفرق ، التي رفعت شعارات الاستحقاقات العائلية والقبلية ، نقول لما كان شعارهم هو هذه

(52) نفسه ، ص193.

(53) سورة البقرة ، الآية 207.

ISSN : 2410-1818

الصيغة ، فقد وجدنا الشعراء الخوارج يتناصون مع القرآن ، في سبيل التأكيد على أن هذا الشعار مستمدّ من كتاب الله الأعظم . يقول فروة الأشجعي :(54)

نقاتلُ مَنْ يقاتلنا ونرضى بحكـم الله لا حُـكْم الرجـال

ويقول عبيدة اليشكري : (55)

ولسنا نقولُ الدَّهْرَ عصمةُ أَمْرِنا على كلِّ حال كان طاعةُ مصعب
ولـكن نقولُ الحُكْمُ لله وحْـدَهُ وبالله نرضى والنبـــي المقـــرَّب

ويقول العيزار الطائي : (56)

ثمانونَ من حيَّيْ جَدِيلةَ قُتِّلوا على النَّهْرِ كانوا يحضبون العواليا
ينـادون لا لا حُكْمَ إلا لربِّنـا حَنَانَيْكَ فاغفرْ حَوْبَنَا والمساويـا

وبتأمل الأبيات (1،3،5) الآنفة ، نجد أنها قد تناصَّت لفظًا وتركيبًا ومعنى مع أكثر من آية قرآنية تمثلت في قوله تعالى : " ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ "(57) . وقوله تعالى : "﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ "(58) . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ

(54) شعر الخوارج ، ص 42.

(55) نفسه ، ص 94.

(56) نفسه ، ص 32. يحضبون : يحطبون بلغة أهل اليمن أي يحطبون الرماح . الحوب : الإثم والذنب.

(57) سورة الأنعام ، الآية 57.

(58) سورة يوسف ، الآية 40.

ISSN : 2410-1818

إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ "[59] . وقوله تعالى : "﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ "[60].

ولا ريب أن إلحاح الشاعر الخارجي على التناص مع القرآن ، خاصة مع هذه الفكرة المركزية بالنسبة لجماعته الخوارج ، الهدف من ورائه التأكيد لخصومهم ، في سياق الحجاج معهم ، وأيضا التأكيد للأمة جمعاء ، على أن مرجعيتهم كتاب الله الذي هو دستور المسلمين ؛ فمنه يستمدون ركائز منهج عقيدتهم .

❁❁❁

ويوظف الشعراء الخوارج التناص الاستشهادي في موقف **الوعظ والإرشاد والتذكير** . يقول الحسن الإباضي : [61]

ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفلُ ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ

ينضح هذا البيت بالتناص مع قوله تعالى:" وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ "[62] ومع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾ " [63] وقوله تعالى : " قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ "[64] ناهيك عن عديد من الآيات القرآنية التي تتحرَّك في هذا الأفق .

والمهم أن التناص – ها هنا – مع الآيات القرآنية ، هو تناص في التركيب و اللفظ والمعنى ، وقد رام الشاعر من ورائه ، إرشاد أصحابه وغيرهم ، بما فيهم الظالمون ، إلى ضرورة مراقبة الله في كل

(59) نفس السورة ، الآية 67.

(60) سورة غافر ، الآية 12.

(61) شعر الخوارج ، ص 234.

(62) سورة إبراهيم ، الآية 42.

(63) سورة آل عمران ، الآية 5.

(64) سورة البقرة ،الآية 33.

ISSN : 2410-1818

أعمالهم وعدم اجتراح أعمال السوء ، ذلك أن الله ليس بغافل البتة ، وأنه يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية ، لا في الأرض، ولا في السماء؛ فحذار حذار من الغفلة .

ولعلَّ من المفيد الإلماح إلى أن ثمَّة مغايرة جزئية في التشكيل اللغوي للتناص ، وبالتحديد في صدر البيت مع الآية القرآنية الأولى ، حيث ورد في البيت المفعول الثاني في جملة فعلية فعلها مضارع (يغفل)، بينما ورد في صدر الآية (اسمًا / غافلاً) ، ولكل دلالته . أما عجز البيت فواضح أنه قد تناص مع الآيتين (2،3) وآيات أخرى. وهذا التناص هو في اللفظ والمعنى لا في التركيب .

أما عمران بن حطان ، وهو يعظ ويرشد ، نجده يحرص على التذكير بعظمة الله وفضله على الإنسان ، انطلاقاً من كون الذكرى تنفع المؤمنين ، وذلك من خلال تصويره لأطوار خلق الإنسان مستلهمًا ذلك ، عبر التناص ، من القرآن الكريم . يقول : (65)

بَرَاك تُرابًا ثُمَّ صيَّرْكَ نُطْفَةً فَسَوَّاكَ حتّى صِرْتَ مُلْتَئِمَ الأَسْرِ

فهذا البيت مرتشف – في معظمه - من قوله تعالى : " قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا "(66).

أما قافيته فمستوحاة من قوله تعالى : " نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا " (67) وواضح – هنا - أنه قد استعار لفظ (الأسر) بمعنى الخَلْق من الذكر الحكيم ويستهدف الشاعر من وراء التناص ، التذكير للإنسان بفضل الله ، حيث خلقه في أطوار تراتبية عجيبة ومدهشة ، وهو ما يحتم عليه مقابلة ذلك بالشكر والطاعة . واللافت أن التناص – هنا – هو تناص في اللفظ ، والتركيب ، والمعنى ، والصورة ؛ لكن مع شئ من التصرُّف الخلّاق.

ويتناص الشاعر الخارجي مع القرآن ، في سياق لوم النفس (التلُّوم النفسي) يقول أحدهم : (68)

ما زال بي صَرْفُ الزمانِ وَرَيْبُـــهُ حتى رفضتُ مجالسَ الفتيانِ
وأَلِفْتُ أقواماً لغيرِ مـــــــودَّة وهجرتُ غيرَ مفارق إخوانـي
وَأَفَضْتُ في لهوِ الحديثِ وهُجْرِهِ بعـد اعتيادِ تِلاوةِ القـــرآنِ

(65) شعر الخوارج ، ص 171.

(66) سورة الكهف ، الآية 37.

(67) سورة الإنسان ، الآية 28.

(68) شعر الخوارج ، ص 48.

ISSN : 2410-1818

يطلُّ علينا البيت الثالث كاشفًا عن تناصٍّ جليٍّ مع قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾ "(69) ، وأيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ ﴾ "(70)

والشاعر الخارجي – هنا – يلوم نفسه التي جعلته يفارق إخوانه الخوارج ، ويعاشر أقوامًا غيرهم ممن لا يحب ، كما أنه يلوم نفسه كذلك ، التي دفعته للاستغراق في لهو الحديث بدليل الفعل الماضي (أفضتُ) المشحون – زمنيًّا – بدلالة نجاز الفاعلية السلبية لذات الشاعرة الخارجية ، ممثلة فذه الفاعلية في الاستغراق في لهو الحديث وأيضًا المشحون – معنويًّا بدلالة الإفراط وتجاوز الحد في لهو الحديث ، ولهو الحديث هو كل ما يُلهي عن طاعة الله ويصد عن مرضاته، إلى درجة جعلته يهجر تلاوة القرآن ، بعد أن كانت عادة تربّى عليها واعتادها . والتناص – هنا – هو تعالق بدرجة كبيرة مع القرآن لفظًا وتركيبًا ومعنًى وصورة .

ونجد الشاعر الخارجي يتناص مع القرآن ، في سياق **الدعوة إلى الزهد وعدم الاستغراق في** اللهو والحياة وملذاتها ؛ لأن الجزاء والحساب قريبان. يقول عمران بن حِطّان : (71)

اقترب الوعدُ والقلوبُ إلى اللهوِ وحبُّ الحياة سائقها

فالملاحظ أن التناص مع القرآن يتصدر البيت ، إذ ينقلنا مباشرة إلى قوله تعالى : " ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧ ﴾ ". (72)

ومبتغى الشاعر من هذا التناص ، تحذير الغارقين في اللهو انقيادًا لحب الحياة ، تحذيرهم ، في أفق تصويري مروّع ، بأن الوعد الحق وهو الموت قريب جدًّا وقد يهجم عليهم فجأة ، فإذا أبصارهم

(69) سورة لقمان ، الآية 6.

(70) سورة الفرقان ، الآية 30.

(71) شعر الخوارج ، ص170.

(72) سورة الأنبياء ، الآية 97.

ISSN : 2410-1818

شاخصة .وإنه لمن البيِّن ، تلاحم هذا التناص مع الآية الكريمة تركيبًا : (اقترب الوعدُ) . ناهيك عن التلاحم : لفظًا ومعنًى وصورة ، مع الانتباه إلى وجود شئ من الانزياح الخلَّاق مبنى ومعنى.

وألفينا الشاعر الخارجي يوظِّف مع القرآن الكريم ، في مقام **الاقتتال والاشتباك مع الخصوم** . يقول عبدالله بن يحيى مرتجزًا يوم قديد : (73)

أَضْرِبُ قوماً حَبِطَتْ أَعمالُهُمْ

اللهُ مولانا و لا موْلَى لهـــم

وهنا ، نطالع تناصًّا ممتدًّا يشمل الصدر والعجز ؛ إذ يجعلنا التركيب (حبطت أعمالهم) الماثل في صدر البيت ، نستحضر العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : " ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ﴾ " . (74) وقوله تعالى : " أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ " . (75)

أما عجز البيت ، فهو يذهب بنا مباشرة إلى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١ ﴾.(76) ولعلَّ من المفيد الإشارة ، إلى أن الجملة الفعلية (حبطت أعمالهم) ، تبدو جملة تصويرية تعكس حالة نفسية جِدّ خطيرة تتملّك خصوم الذات الشاعرة الخارجية ، وذلك حينما تحبط أعمالهم وتبطل ويداخلها الفشل والانكسار فتخلو من الثمرة والنجاح.

ويستهدف الشاعر الراجز من وراء التناص ، أولاً ، خلق الحماس في نفسه وأنفس أصحابه من الخوارج وهم في خضم المعركة ، وثانياً ، التأكيد على أن النصر حليف الخوارج لأنهم مؤمنون والله مولاهم ، في حين الهزيمة حليفة خصومهم ، لأنهم كافرون وأعمالهم باطلة . والتناص مع النص الغائب / القرآن الكريم – هنا – هو في اللفظ والتركيب والمعنى : (حبطت أعمالهم – الله مولانا – لا مولى لهم) حسبما هو واضح.

---

(73) شعر الخوارج ، ص 222.

(74) سورة الكهف ، الآية 105.

(75) سورة آل عمران ، الآية 22.

(76) سورة محمد ، الآية 11.

ISSN : 2410-1818

2. **التناص الإحالي:**

الحق أن هذا اللون من التناص لا يعلن عن نفسه على نحو صريح وكليّ ، بل يحيل إلى ذاكرة المتلقي القارئ بأحد دوالّه ، أو ما ينوب عنه ، فيذكر شيئًا ويسكت عن آخر ، دون استحضار المتناص (النص الغائب) حرفيًّا .(77)

وبقراءة فاحصة في شعر الخوارج بحثًا عن هذا اللون من التناص ، نجده مبثوثًا هنا وهناك , على امتداد جسم الديوان ، مترقرقًا في أنسجتهم الشعرية ومتجلّيًّا في تضاعيفها تجليًّا أقرب إلى الخفاء حينًا, وإلى التجلّي حينًا آخر ، بيد أننا في كلا الحالين نحس بنبضه وتمترسه – إذا جاز التعبير- وهو على أي حال قد تراءى في سياقات شتى ، ومن ذلك **سياق التذكير والوعظ بعبثية الحياة وحتمية الموت والهلاك** على الرغم من تكالب الناس على هذه الحياة وزينتها . يقول الطِّرِماح بن حكيم : (78)

ترك الدهرُ أهلهُ شعبـــــًا فاستمرَّت من دونهم عُقَدُه
وكذاك الزمانُ يَطْرُدُ بالنَّا سِ إلى اليومِ : يومُهُ وغَـدُه
لا يلبثانِ باختلافهما المرْ ءَ وإن طالَ فيهما أمـــــدُه
كلُّ حيٍّ مُسْتَكملٌ عدَّةَ العمـــــــرِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُه
عجباً ما عجبتُ للجامعِ المانـ لَ يُبَاهي به ويرتفـــــدُه
ويضيعُ الذي يصيره اللـــــهُ إليه فليسَ يعتقـــــدُه
يومَ لا ينفعُ المخولَ ذا الثرْ وةِ خِلانُهُ ولا ولـــــــدُه
يومَ يُؤتى به وخصماهُ وســـط الجنِّ والْإنسِ رِجْلُهُ ويـــدُه
خـاشـعَ الصـوتِ ليـــس ينفعُهُ ثمَّ أمانيُّهُ ولا ولـــــدُه
قلْ لباكي الأمواتِ لا تبكِ للنا سِ ولا يستنع به فنـــدُه
إنما النَّاسُ مثلُ نابتةِ الـــــزَّر ع ِمتى يأن يأنِ مُحْتَصَدُه

(77) ينظر : التناص التراثي ، م . س ، ص 95.

(78) شعر الخوارج ، ص 236– 237. يطرد بالناس : يسوقهم . لا يلبثان : لا يؤخران . مودٍ : هالك . المخول : ذو المال والخدم . اللد : شدة الخصومة والقدرة على الجدل . يستنع : يتمادى . الفند : الحمق والكذب.

ISSN : 2410-1818

لا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا إن الشاعر – في هذه الفلذة الشعرية – يفكّر بالمعاني والدلالات القرآنية العليا ، كيف لا ، وقد استوحى ظلال الآيات القرآنية – على سبيل التناص - فمازجها في خطابه الشعري ، فإذا بنا نحس بأنفاسها في نصّه على نحو بديع ، نحسها وقد تجسّدت في مشهد تصويري أخّاذ جعلنا نصغي إلى أصداء البيان القرآني وظلاله – على نحو أو آخر – وذلك حين يُصافح أعيننا وقلوبنا اليوم والغد وهما " لا يلبثان الإنسان" وأيضًا أن (كل حيّ مستكمل عدة القمر ... إذا انقضى عدده) . الشئ الذي يحيلنا إلى قوله تعالى : " وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" [79]؛ فإذا بهذا الإنسان أخيرًا في مواجهة مشهد القيامة والحساب " وخصماه رجله ويده " وهذا أيضاً يحيلنا – بدوره - إلى قول الله تعالى : " يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " [80] . وساعتئذ لا تنفع هذا الإنسان أمانيه ولا ماله ولا خدمه ولا " خلانه ولا ولده " ،

وهذا المبنى والمعنى يحيلنا – بدوره - إلى قوله تعالى : " يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ۞ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ "[81]. ، وختاماً ، ها هو الشاعر الخارجي يحرص – في نهاية دفقته الشعرية - على تلخيص الحقيقة الوجودية للإنسان ، وهي أن الفناء مصير كل إنسان ، يلخصها متوسلًا بمعاني القرآن وتصويراته المدهشة ، وذلك من خلال تصويره التشبيهي لدورة حياة الإنسان ، بدورة حياة نابتة الزرع ، فالإنسان تمامًا , كالزرع يمر بمراحل تنتهي به إلى الموت مثلما الزرع يمر بمراحل تنتهي به – حتمًا - إلى الحصاد عندما يحين وقت حصاده ، وهذا المعنى مستوحى – بخفاء - من القرآن ؛ حيث أشارت عدة آيات قرآنية – على نحو من الأنحاء - إلى هذا المعنى / الصورة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾ [82] وأيضًا قوله تعالى : " وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ". [83]

وهكذا فقد تناص الشاعر ، مع عدة آيات مازجًا إيّاها في لحمته الشعرية ، بهدف تكثيف المعنى الذي توخاه ، وقد استطاع بالفعل خلق صورة جمالية مؤثرة ، صورة شيدت قوتها منذ مطلع الدفقة

(79) سورة المنافقون الآية 11.

(80) سورة النور ، الآية 24.

(81) سورة الشعراء ، الآيتان 88،89.

(82) سورة الزمر ، الآية 21.

(83) سورة الأنعام ، الآية 141.

ISSN : 2410-1818

الشعرية ، وذلك من خلال تصوير الدهر / الزمان على سبيل الاستعارة المكنية ، قوة تدميرية تفتك بالبشر، الفتك الذي يجعلهم شعبًا وأوصالاً : (ترك الدهر أهله شعبًا ...)

باختصار شديد ، إن الشاعر الخارجي ، قد رام من وراء هذا التناص المعتمد على التصوير ، حثّ الإنسان الخارجي خاصة والإنسان عامة ، على أن يسارع في اجتراح أعمال الخير والبر ؛ لأن الحياة مآلها الفناء لا محالة . على أن غاية الشاعر من وراء هذه اللحمة الشعرية أيضًا ،هو حثَّ الخوارج على الاستغراق في عالم الاستشهاد في سبيل الله ، والذي يعدُّ بالنسبة لهم الديدن الأوحد ، ذلك أن الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية والدائمة .

ويلاحظ أن الشاعر الخارجي ظلَّ يؤكد على هذه الحقيقة ، ألا وهي حقيقة أن الحياة فانية ، وأن الموت مسألة حتمية لكل الكائنات يقول قطريّ بن الفجاءة : (84)

سَبيلُ المَوتِ غايَةُ كُلِّ حَـيٍّ ... فَداعِيَهُ لِأَهلِ الأَرضِ داعي
وَمَن لا يُعتَبَط يَسأَم وَيَهرَم ... وَتُسلِمهُ المَنونُ إِلى اِنقِطاعِ
وَما لِلمَرءِ خَيرٌ في حَيـــاةٍ ... إِذا ما عُدَّ مِن سَقَطِ المَتاعِ

أبيات تنضح بمعانٍ ودلالات قرآنية ، فقد عمد الشاعر إلى تكوين صورته الفنية من وحي القرآن الكريم الذي نَفَّر الكثير من آياته من الحياة الدنيا وغرورها ، بغية التأكيد على حتمية الموت ، ويقودنا الدال (كل) الماثل في صدر البيت الأول و مالفَّ لفَّة ، إلى أن الشاعر قد استلهم هذه المعاني من قوله تعالى : "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ"(85) . وغاية الشاعر من التأكيد على هذه الحقائق في أفق القرآن يمثل دعوة إلى اختيار الميتة الأشرف ، ألا وهي الشهادة في سبيل الله التي تمثل مبتغى الخوارج الأكبر .

۞۞۞

(84) شعر الخوارج ، ص 109 . يُعْتَبط : يموت من غير علة ، يسأم : يمل من الهرم وتكاليفه . سَقط المتاع : ما لا خير فيه .

(85) سورة الرحمن ، الآيتان 26،27.

ISSN : 2410-1818

والحق أن الشاعر الخارجي لطالما أكّد ، متأثّرًا بالقرآن و متعالقًا معه ، على فكرة أن الحياة مآلها الفناء ، ومن ثمّ فهو يسعى دومًا للموت أو الاستشهاد في سبيل الله طمعًا في الحياة الباقية ، ألا وهي الحياة الآخرة . يقول أبو بلال : (86)

حتى أبيعَ الذي يفنى بآخرةٍ تبقى على دين مرداسٍ وطوّافِ

ويقول الرهين المراديّ : (87)

إني لبائعُ ما يَفْنَى لباقيةٍ إن لم يَعُفْني رجاءُ العيشِ ترْبيصا

وبتأمل هذين البيتين ، ندرك أنهما امتصاص – بخفاء – لأكثر من آية قرآنية تمحورت حول هذا المعنى ، ومنها – تمثيلاً لا حصرًا – قوله تعالى : " ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ ﴾ " .(88) وقوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١ ﴾.(89)

ويستمر الشاعر الخارجي ، في ترديد هذه الفكرة والتأكيد عليها بألفاظ أخرى تدلّ عليها ، مستلهمًا إيّاها من – القرآن – أيضًا ، وعلى سبيل التناص . يقول عمران بن حِطّان : (90)

وليس لعيشنا هذا مهاةٌ وليست دارُنا هاتا بدار
وإن قلنا لعلَّ بها قرارًا فما فيها لحيٍّ من قرار

ويقول عمرو التميميّ : (91)

لا خيرَ في الدنيا لمن لم يكنْ له من الله في دارِ القرارِ نصيبُ

وبإمعان البصر والبصيرة في الأبيات الثلاثة السابقة ، نجد أن الأول يتقاطع معنى ودلالة ولفظًا مع أكثر من آية قرآنية لعلَّ أجلاها قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ

---

(86) شعر الخوارج ، ص 59. مرداس وطواف من أبطال الخوارج وشهدائهم .

(87) نفسه ، ص 62.التربيص من التربص وهو الترقب والانتظار.

(88) سورة الضحى ، الآية 4.

(89) سورة الإسراء ، الآية 21.

(90) شعر الخوارج ، ص153. المهاه : الطراوة والحسن .

(91) نفسه ، ص 88.

ISSN : 2410-1818

ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.[92] أما البيتان الآخران فمستمدّان لفظًا وتركيبًا ومعنى من قوله تعالى : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ .[93]

ولم يكتفِ الشاعر الخارجي بالدعوة غير المباشرة أو الضمنية إلى طلب الاستشهاد في سبيل الله ، بل نراه – في مواطن كثيرة – يدعو بشكل صريح وواضح إلى الجهاد في سبيل الله . يقول قطري بن الفجاءة المازني : [94]

أَبا خالِدٍ يا اِنفُر فَلَستَ بِخالِدٍ وَما جَعَلَ الرَحمنُ عُذراً لِقاعِدِ
أَتَزعُمُ أَنَّ الخارِجيَّ عَلى الهُدى وَأَنتَ مُقيمٌ بَينَ لِصٍّ وَجاحِدِ

يطالعنا التناص في البيت الأول ، من خلال الفعل (انفر) والذي يتقاطع لفظًا ومعنى وصورة مع ثلاث آيات قرآنية أولاها قوله تعالى ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾"[95] وثانيتها قول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ " [96]

وأما ثالثتها فقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا "[97] . والملحوظ أن هذا الفعل (يا انفر) قد دخلت عليه أداة النداء مباشرة وحذف المنادى المكرر أبا خالد فانصب النداء على الفعل بعده ، وهو من الأساليب المألوفة في القرآن غير أن الأصل هو دخول (يا) النداء على الأسماء لا الأفعال .

(92) سورة العنكبوت ، الآية 64.

(93) سورة غافر ، الآية 39.

(94) شعر الخوارج ، ص 105–106 .

(95) سورة التوبة الآية 41.

(96) سورة التوبة الآية 38.

(97) سورة النساء الآية 71.

ISSN : 2410-1818

ويبدو أن غاية الشاعر الخارجي من التناص – هنا – ليس الوعظ فحسب ، وإنما غايته الأساسية - فيما نعتقد - هي دعوة أصحابه إلى طلب الموت و الاستشهاد في سبيل الله تحقيقاً لقضيتهم التي نذروا أنفسهم لأجلها .

ومن الجدير ذكره – هنا - أن لفظ (قاعد) ليس إلا تناصًّا مع قوله تعالى : "﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ "[98] وقوله تعالى : ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ "[99] وقوله تعالى : "وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ".[100]) ومهما يكن من شيء , فالساطع أن الشاعر الخارجي يعمد إلى التناص مع القرآن , لكنه يتصرف في المبنى والمعنى وفقاً لما يخدم الدلالة التي يرومها ويشتهيها . وهنا تبدو عبقرية الشاعر الخارجي .

ويتجلّى التناص الإحالي في سياق **التغنّي بالصفات السامية للجماعة الخارجية** . يقول عمرو الإباضي : [101]

متراحمين ذَوُو يَسَارهُمُ يتعطَّفون على ذوي الفقرِ
وذوو خَصَاصتهم كأنَّهُمُ من صِدْقِ عِفّتهم ذوو وَفْرِ

يحرص الشاعر الخارجي – في هذين البيتين – على إبراز صفتين معنويتين للخوارج ، ألا وهما الرحمة والإيثار . غير أن المهم – هنا – أنه بغرض إقناع المتلقي ، والتأكيد على أن الخوارج هم الفئة المؤمنة الوحيدة المتمثلة لقيم الإسلام ، نقول إنه قد عمد ، عبر التناص ، إلى التعالق مع النص القرآني ؛ ففي البيت الأول نرى أنه قد تداخل في نظمه وتمازج في وقعه مع قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ

(98) سورة النساء - الآية 95

(99) سورة التوبة الآية 46.

(100) سورة التوبة الآية 86.

(101) شعر الخوارج ، ص 223. الخصاصة : الفقر والجوع .

ISSN : 2410-1818

مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾.[102] أما البيت الثاني فقد تداخل في نظمه وتمازج في وقعه مع قول الله تعالى : " لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ " .[103] وكذلك مع قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.[104]

والتناص مع القرآن – هنا – هو تناص في اللفظ والمعنى و الدلالة ، وكانت براعة هذا التناص مع التصوير القرآني الذي انتظم كل أولئك خالقًا - في النهاية – هذه الكثافة العالية في المعنى والدلالة. على أن من المهم الإلماح إلى أن هذا التناص ، قد تأسَّس على الانزياح في التشكيل اللغوي البنائي ، لا الدلالي فـ (رحماء) اللفظ القرآني تم تغييرها إلى (متراحمين) في المنطوق الشعري و(خصاصة) اللفظ القرآني ، تم تغييره إلى (خصاصتهم) ، كما تم تعديل اللفظ القرآني (التعفف) إلى (عفتهم) ، وهذا التطويع كله في سبيل تكثيف المعنى والتجاوب مع طبيعة الدلالة المرادة .

ومن السياقات التي تجلّى فيها التناص الإحالي ، **سياق رفض التفاضل في الأنساب والأحساب والاعتداد بالقربى** . يقول عيسى الخطيّ :[105]

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سـواهُ ... إذا فخروا ببكرٍ أو تميـــمِ
كلا الحيين ينصرُ مُدَّعيـه ... ليلحقَهُ بذي الحسبِ الصميـمِ
وما حَسَبٌ ولو كَرُمَتْ عروقٌ ... ولكنَّ التقيَّ هو الكريـــمُ

(102) سورة الفتح ، الآية 29.

(103) سورة البقرة ، الآية 273.

(104) سورة الحشر ، الآية 9.

(105) شعر الخوارج ، ص 58.

ISSN : 2410-1818

تصافحنا في الأبيات السابقة نظرة الإسلام الحقيقة والسامية للناس إجمالاً ، والتي آمن بها الخوارج كل الإيمان ، والتي خلاصتها أن كرامة الإنسان ومعيار وزنه عند الله – سبحانه - لا ترتبط بعراقة نسبه أو حسبه أو جنسه أو لونه أو شكله ... إلخ ، وإنما كرامة هذا الإنسان عند الله ، مرتبطة فقط بتقواه وصلاحه وطاعته وشكره .

والظاهر أن الشاعر، في هذه الأبيات ، قد تغيّا التأكيد على هذه الحقيقة الإنسانية من خلال الحقيقة الإسلامية القرآنية ، في عجز البيت الثالث تحديدًا ، حيث استدعى هذه الدلالة العليا : لفظًا ومعنى من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾. (106)

على أن التناص - هنا - فيه تحوير واضح عما هو عليه في القرآن من جهة المبنى اللفظي ؛ ففي حين ورد في القرآن أفعالًا (أكرمكم - أتقاكم) ، فإنه في البيت الشعري قد جاء في صورة اسمية وصفية (التقي – الكريم). ولكل دلالته . ويجدر بنا في هذا الصدد استدعاء بيت عمران بن حطان ، الذي أكّد فيه على هذا المعنى بصورة ساطعة متناصًّا مع الآية الآنفة الذكر . ونص هذا البيت كالتالي : (107)

فنحن بنو الإسلام والله ربُّنا وأَوْلى عِباد الله باللهِ مَنْ شَكَرَ

❁❁❁

ويمتصُّ الشاعر الخارجي آية قرآنية ، **في سياق التقرير والإخبار** بأن أي دين غير الدين الإسلامي الذي جاء به النبي محمد - ﷺ – هو دين ضلال ، وعلامة ذلك أن أهله تكون صدورهم ضيقة حرجة . يقول عِمْران بن حطّان : (108)

وكذاك دينٌ غيرُ دين محمّدٍ في أهله حَرَجٌ و ضيقُ صدورِ

(106) سورة الحجرات ، الآية 13.

(107) شعر الخوارج ، ص 165.

(108) شعر الخوارج ، ص 172.

ISSN : 2410-1818

فهذا البيت يمثل امتصاصًا واضحًا لقوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ ﴾ . (109)

والتناص في هذا البيت – كما هو ساطع - هو تناص في اللفظ والمعنى والصورة مع تحوير ملحوظ في التشكيل اللغوي للبيت .

ويوظّف الشاعر الخارجي التناص الإحالي ، في سياق الرثاء . يقول عبيدة اليشكري : (110)

عَجِبْتُ لأحداثِ البلاءِ وللدَّهْرِ وللْحَيْنِ يأتي المرْءَ من حيثُ لا يدري

فالملاحظ أن الشاعر قد وظّف نصًّا قرآنيًّا يتراءى في عجز البيت ، وذلك لفاجعة الموت التي تعصف بالإنسان من حيث لا يعلم ولا يدري ، ويتمثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَۖ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ٣٤ ﴾. (111)

ويبدو أنه اتخذ من معنى الآية و مقصديتها مدخلًا لتأكيد حقيقة الضعف البشري ، وأن الإنسان مسيّر لا مخيّر في هذه الحياة ، وأن الله وحده هو من عنده علم كل شيء كما له القدرة على كل شيء ، أما الإنسان فمسكين ضعيف لا حول له ولا قوة .

ولعلَّ تجسيد الحين / الموت قوة معادية مباغتة عبر الصورة الاستعارية (وللحين يأتي المرء من حيث لا يدري) ، نقول لعلَّ ذلك دلَّ على مدى الضعف البالغ للإنسان ومحدودية قدرته وقد كان للتناص أو التعالق من الآية الكريمة دور لا يخفى في تأكيد هذه الحقيقة الوجودية للإنسان ، على الرغم من أن التناص كان كاملاً على مستوى المعنى ، غير أنه كان جزئيًّا على مستوى المبنى . ومن الجدير ذكره أن تصرُّف الشاعر بالآية القرآنية المتناص معها ليبدو تصرُّفًا خلّاقًا , ولا أدلّ من أن الموت في المنطوق

(109) سورة الأنعام ، الآية 125.

(110) شعر الخوارج ، ص 95.

(111) سورة لقمان ، الآية 34.

ISSN : 2410-1818

الشعري هو الفاعل النحوي والدلالي المتسلطة فاعليته على النفس الإنسانية ، بينما الفاعل النحوي الدلالي ، هي النفس ذاتها.

❁❁❁

ونطالع تأمُّلاً زهديًّا في شعر الخوارج يتحرك في أفق هذا المحور ، تأمُّلاً يتكئ على تناص يحال فيه المتلقي إلى صورة نفسية قرآنية . يقول عمران بن حطّان : (112)

يأسفُ المرءُ على ما فاتــــه	من لُبَانَاتٍ إذا لم يَقْضِهـــــا
وتراه فَرِحًا مستبشـــــرًا	بالتي أمْضى كأن لم يُمْضها
عجبًا من فرحِ النَّفْسِ بهــا	بعدما قد خرجتْ من قبضها
أنا عندي ذاك أحلام الكرى	لقريبٌ بعضها من بعضهـــا

وبقراءة نافذة لهذه الأبيات ، خاصة الثلاثة الأولى منها ، نلحظ أنها قد أحالتنا مباشرة إلى قوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ " .(113)

اللافت – هنا - أنه قد تم استدعاء النص القرآني ، وممازجته بالدفقة الشعرية ، بهدف تكثيف المعنى المبتغى ؛ خاصة وأن مدار هذه الدفقة هو الكشف ، في أفق تأملي وعظي زهدي ، عن طبيعة مركوزة في النفس البشرية ، ألا وهي التأسف والتألم على ما فات الإنسان من حاجات وطموحات دنيوية ، وفرح نفسه- بالمقابل - بما يناله ويحققه من هذه الحاجات والطموحات. ويبدو أن غاية الشاعر ، من وراء ذلك ،التعجب من النفس الإنسانية ، ودعوة صاحبها إلى الزهد في الحياة وعدم الاكتراث لأي شيء ، لأن كلا الفعلين (= الأسى والفرح) أحلام الكرى ، ونتيجتهما واحدة ، لأن الحياة الحقيقية هي في الآخرة . وهنا ندرك أن الشاعر ، في تصويره هذا ، قد تناص مع القرآن فجاء تصويره متمازجًا في تركيبه وألفاظه ومتداخلًا في تكوينه ومعانيه مع النص القرآني إلى حد بعيد ، وهو ما كان من شأنه تكثيف المعنى وتعميقه.

❁❁❁

(112) شعر الخوارج ، ص 157.

(113) سورة الحديد ، الآية 23.

ISSN : 2410-1818

وفي سياق الرثاء كذلك يصافح أعيننا توظيف الشاعر للآيات القرآنية في خطابه الشعري الراثي .

يقول أيوب البجليّ راثيًا جابر بن سعد:(114)

كَفى حزناً أَنّي تَذَكَّرتُ جابِرًا عَلى جابِرٍ صَلَّت خيارَ المَلائِـــكِ
قَتيلٌ مَضى إِذ عاهَدَ اللَهَ نَحبَهُ وَلَم يَنتَظِر إِذ قيلَ : إِنَّكَ هالِكُ

ولا حاجة لنا – هنا - للتأمل طويلاً , وإدراك أن البيت الثاني يتداخل في نظمه ويتمازج في وقعه لفظاً وتركيباً ومعنى مع قوله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ ﴾ " (115). وتبدو فاعلية التناص – هنا – واضحة وجليَّة ، حيث أفاد الشاعر من التناص مع القرآن ليحقق المعنى الذي رامه ويمنحه عمقاً لا تخطئه العين .

على أن الشاعر قد تصرَّف في الآية القرآنية على نحو خلَّاق ، كان من شأنه خدمة المعنى الذي توخَّاه ، فإذا كانت الآية قد تكلمت عن جماعة من المؤمنين فالتزمت صيغة الجمع اسمًا وفعلًا :(المؤمنين – رجال – صدقوا – عاهدوا) , فإن الشاعر قد تكلم عن المرثي جابر بصيغة المفرد ، (مضى – عاهد – نحبه – لم ينتظر – إنك – هالك) مشيرًا إلى أنه كان من الفريق الذي لم ينتظر ، فاستشهد في سبيل الله ، وتلك غاية كل خارجي .

ويلقانا التناص الإحالي - بالإضافة إلى ما تقدَّم ذكره – في سياق نقد تعلُّق الناس الشديد بالحياة الدنيا. يقول عمران بن حطّان : (116)

أَرى أشقياءَ النَّاسِ لا يسأمونها على أَنَّهم فيها عُرَاةٌ وجُوَّعُ

يحيلنا اللفظ (عُرَاة وجوَّع) الماثلان في عجز البيت إلى قوله تعالى :" ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ ﴾ " . (117)

(114) شعر الخوارج ، ص 198.
(115) سورة الأحزاب - الآية 23.
(116) شعر الخوارج ، ص 154.
(117) سورة طه ، الآية 118.

ISSN : 2410-1818

فالشاعر – هنا – يلمح ، من خلال التناص مع آية قرآنية واحدة ، يلمح للمتهالكين على الدنيا وزينتها وللمتلقين لهذه الموعظة الشعرية إجمالًا ، يلمح لهم جميعًا بقصة آدم وحواء مع إبليس ، إذ ما كان من الله – سبحانه – وقد أخذ آدم في الاستسلام لوساوس إبليس التي أخرجته وزوجه من الجنة إلى الدنيا الفانية ، نقول ما كان من الله إلا أن خاطبه بقوله : " فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى "[118] والشاعر أراد من خلال هذا التناص تأكيد حقيقة الحياة الدنيا ، وأنها ليست إلا دار شقاء وجوع وعري والتناص مع الآية القرآنية – كما هو بيِّن – تناص في اللفظ والمعنى والصورة مع ضرورة الإلماح إلى أنه تناص قد اختلف من حيث طبيعة الألفاظ مناط التناصية حيث وردت في البيت الشعري أسماء (أشقياء – عراة – جُوَّع) في حين وردت في الآية الكريمة أفعالًا (تشقى – تجوع – تعرى) . وعلى أية حال ، فإن هذا التناص قد عزّز المعنى وكثّفه على نحو شديد السطوع.

ونرى الشاعر الخارجي يوظّف النصَّ القرآني في الأوقات العصيبة التي يمر بها أو تمر بها جماعته الخارجية . يقول عبيدة اليشكريّ : [119]

إلى الله أشكو لا إلى الناس أشتكي بقومسَ إذ فيها الشُّراةُ حلولُ

ويقول شاعر خارجي مجهول :[120]

إلى الله أشكو كربة أن تفرّجا وهمًّا دخيلًا لا أرى منه مخرجا

وهنا نجد أن هذين البيتين وبالتحديد في صدريهما ، يحيلانا مباشرة إلى قوله تعالى : " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ "[121] . ومعلوم أن هذه الآية قد وردت على لسان يعقوب -عليه السلام - حين ابتلي بفقد ولديه .

(118) نفسها ، الآيات من (117– 119) .

(119) شعر الخوارج ، ص 99. قومس : كورة بين الرّي ونيسابور .

(120) شعر الخوارج ، ص 135.

(121) سورة يوسف ، الآية 86.

ISSN : 2410-1818

وفي البيت الأول نلحظ أن الشاعر(عبيدة) قد تغيَّا من وراء هذا التناص ، التعبير عن مدى ألمه وحزنه ، وذلك لهروبه وأصحابه إلى قومس (بلدة في عمق إيران) فرارًا من مواجهة المهلّب بن أبي صفرة العدو اللدود للخوارج ، وكأني بالشاعر يقول عبر تناصه مع القرآن ، إن الحالة التي أحياها وأصحابي الخوارج ملاحقين هي تمامًا كحالة الألم والحزن التي ألمَّت بالنبي يعقوب على ابنه يوسف - عليه السلام – عندما فرَّط فيه إخوته .

أما في البيت الثاني فقد عمد الشاعر الخارجي ، إلى هذا التناص ليكشف عن محنته وأصحابه من الخوارج ، وذلك عندما مرَّ وإيَّاهم بلحظة عصيبة ، ألا وهي لحظة الانهزام والإنكسار أمام أعدائهم ، الأمر الذي شكَّل كربة بالغة ، لذا فقد توجه بالشكاية إلى الله طالبًا منه منحهم الفرج القريب.

ونلحظ أن التناص في البيتين الآنفين، قد كان على مستوى اللفظ والتركيب والمعنى ، لكن المغايرة كانت على مستوى التشكيل اللغوي في أفق أسلوب التقديم والتأخير، إذ تقدمت في المنطوق الشعري شبه الجملة (إلى الله) على الجملة الفعلية (أشكو) ، أما في التعبير القرآني فقد تقدَّمت الجملة الفعلية (أشكو)على شبه الجملة (إلى الله) . والتقديم في البيت غايته حصر الشكوى على الله وحده دون سواه. ومهما يكن من شئ ، فإن هذا التطويع قد خدم المعنى وعاظم من دلالته وتأثيره أيما تعاظم .

ويلقانا التناص الإحالي أيضًا ، في سياق احتفاء الشاعر الخارجي بالنصرعلى أعداء جماعته . يقول يزيد بن حبناء : (122)

ونحن شفينا من يزيدَ صُدُورَنا ومن خيله وصاحبُ الحربِ مِغْشَمُ

يحيلنا صدر هذا البيت إلى قوله تعالى : " قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ " .(123)

والتناص – ها هنا – مع الآية الكريمة ، تناص على مستوى اللفظ وأيضًا المعنى ، غير أنه تناص منزاح ومختلف على مستوى التشكيل اللغوي ، ولا أدلّ على ذلك من طبيعة إسناد الفعل ، حيث أسند الفعل في الآية (يشفي صدور قوم مؤمنين) إلى الله ، بينما أسند الفعل في البيت (شفينا من يزيد

(122) شعر الخوارج ، ص 85. مغشم : الشجاع الذي لا يهاب شيئًا .

(123) سورة التوبة ، الآية 14.

ISSN : 2410-1818

صدورنا) إلى الذات الخارجية الجمعية ، فهي من شفت صدورها من (يزيد) وجنوده وهو والي الأمويين على الرّي (طهران عاصمة إيران حاليًّا) ، وذلك من خلال الانتصار الكاسح على هذا الوالي ولا شكَّ أن توظيف التناص القرآني ، في لحمة البيت وسداته ، قد عاظم من قيمة الدلالة وجعلها أكثر بلاغة وعمقًا.

3. التناص التلميحي الإشاري :

ويقصد به التناص الذي يرتكز على استيحاء المفردة القرآنية ، وتوظيفها في علاقات فنية جديدة تلميحًا وإلماعًا غير مباشر، وهو أقلُّ ألوان التناص وضوحًا ؛ ففهمه يحتاج إلى عمق في ملاحظة علاقته بالنص الغائب .[124]

ويطالعنا هذا النوع من التناص في شعر الخوارج ، لكن ليس بتلك الكثافة التي تمتع بها النوعان السابقان . ولقد ورد في سياقات شتى ، منها سياق الرثاء. تقول عمرة الخارجية في رثاء ابنها عمران الراسبي : [125]

اللهُ أيَّدَ عِمْرانًا وطهَّرَهُ وكان عِمْرانُ يدعو اللهَ في السَّحَرِ

يكشف هذا البيت عن تناص خفي يحتاج إلى غير قليل من التأمل لملاحظة علاقته بالنص الغائب / القرآن ؛ فقولها (اللّه أيد) تمثل تناصًّا – كما يبدو لنا - مع قوله تعالى : " وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ " . [126] أما قولها (وطهَّره) فتمثل تناصًّا مع قوله تعالى : " إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ...." . [127] وأما قولها (يدعو اللّه في السحر) فهو يتعالق مع قوله تعالى : " وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " . [128] وأيضًا قوله تعالى : " الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ " . [129] . والتناصات الإشارية المختلفة - هنا – مع النص القرآني ، تستهدف الشاعرة الخارجية من ورائها ، منح ابنها المرثي (= عمران) مكانة مقدسة وهبه اللّه إيّاها كما وهب الأنبياء ؛ فقد منحه التأييد بالنصر كما منح نبيه محمد – ﷺ –

---

(124) ينظر : التناص التراثي ، ص 109.

(125) شعر الخوارج ، ص 73.

(126) سورة الأنفال ، الآية 62.

(127) سورة آل عمران ، الآية 55.

(128) سورة الذاريات ، الآية 18.

(129) سورة آل عمران ، الآية 17.

ISSN : 2410-1818

وطهره من الرذائل تماما كما طهَّر عيسى – عليه السلام – ولا عجب فهذا الشهيد الخارجي (قتل مع نافع بن الأزرق يوم دولاب) كان من المتقين الذين من أبرز صفاتهم دعاء الله واستغفاره في أوقات السحر، أي أواخر الليل .

بيد أن غاية الشاعرة من هذه الفسيفساء التناصية من القرآن – فيما نعتقد - التأكيد للمتلقين – في ضوء مرجعية دينية قرآنية - بأن فتى هذا حاله لا خوف عليه لأن مصيره حتمًا الجنَّة.

❁❁❁

ويستعين الشاعر الخارجي بالقرآن في موقف التصالح مع الخصوم ، بعد أن بدا منهم معروفًا ، ومن ذلك إطلاق الحجّاج بن يوسف الثقفي لعِمْران لن حطَّان وقد طُلِب منه معاودة قتال الأول ، فما كان من عمران إلا أن قال : (130)

أأقاتل الحجّاجَ عنْ سُلطانـــهِ بيدٍ تُقِـــرُّ بأنَّها مولاتُـــه
إنّي إذَاً لَأَخو الدَناءَةِ وَالَّـــذي عَفَّت عَلى عِرفانِهِ جَهَلاتُهُ
تـــاللهِ ما كدْتُ الأميرَ بآلـةٍ وجوارحي وسلاحها آلاتـه

والتناص في البيت الثالث ، مستمدٌّ من قصة أبي الأنبياء ابراهيم مع قومه ، وبالتحديد من قوله تعالى : " وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ". (131)

وبوسعنا القول إن الشاعر- في هذا البيت - قد وظّف التناص القرآني توظيفًا جديدًا بخلاف ما هو عليه في القرآن ، فالقسم (تالله) في البيت لنفي القيام بالفعل / الكيد ، فعل المكر والغدر ومعاودة قتال الحجّاج ، في حين القسم نفسه (تالله) في الآية القرآنية ، الغرض منه تأكيد النبي إبراهيم – عليه السلام – لقومه بأنه سيقوم بالكيد والمكر بأصنامهم من خلال تكسيرها بعد أن يتولوا عنها ذاهبين .

(130) شعر الخوارج ، ص 169.

(131) سورة الأنبياء ، الآية 57.

ISSN : 2410-1818

ويستثمر الشاعر الخارجي النص القرآني ، في مقام الرثاء وإبراز بطولات جماعته الخارجية. يقول يزيد بن حبناء: (132)

إذا اِنتَطَحتَ مِنّا كَراديسُ غادَرَت جَراثيمَ صَرعى لِلنُّسورِ القَشاعِمِ
وَلَم أَكُ مشغولاً بِسابورَ عَنكُمُ وَبالسَفحِ إِذ نَغشى صُدورَ الغَواشِمِ

لقد استطاع الشاعر بكلمة ماثلة في صدر البيت الثالث وهي (صَرْعى) ، أن يتعالق مع آية تنسجم مع هدفه ، وتتمثل في قوله تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾ . (133)

ونلحظ أن الشاعر قد أحالنا - من خلال هذه الآية - إلى مشهد قرآني متكامل ، أحالنا وفي ذهنيته قارئ يشاركه ثقافته وتجربته . باختصار لقد جعلنا هذا التناص نستحضر قصة قوم عاد ، وكيف أهلكهم الله ، تمامًا كما أهلك الله – عزَّ وجلَّ - على يد هذه الثلة من الخوارج ، أهلك خصومهم ؛ فقد أحالتهم هذه الثلة الخارجية المؤمنة إلى جثث صرعى تأكلها النسور الضخمة . ومما زاد من قوة التناص وفاعليته في رفد المعنى والتحليق به في ذهن المتلقي ، المفردة (صَرْعى) التي جاءت نحويًا (حالًا) لتستحضر صورة ساطعة بالغة التأثير في النفس والوجدان ، وهو ما ساهم في خدمة المعنى . وغير خافٍ أن التناص – هنا – قد أفرز علاقة جديدة ، مع ضرورة الإشارة إلى أن هذا التناص كان على مستوى اللفظ والصورة و المعنى .

ويوظف الشاعر الخارجي الدعاء القرآني ، كما في قول أحدهم : (134)

يا ربِّ هَبْ لي التُّقَى والصدقَ في ثَبَتٍ واكفِ المهمَّ فأَنْتَ الرازق الكافي

والصيغة الدعائية القرآنية التي وظّفها الشاعر – هنا – هي (رب هب لي) ، وتوظيفها ليس لذات الطلب أو المعنى في القرآن وإنما لمعنى جديد أو علاقة جديدة ، وهذا ما سنتبيّنه بعد سرد الآيات

(132) شعر الخوارج ، ص 86 . كراديس : ج كردوس وهي كتائب الخيل العظيمة . جراثيم : العدد الكبير المتجمع من المقاتلين . القشاعم : ج قشعم ، وهي النسور الضخمة .

(133) سورة الحاقة ، الآية 7.

(134) شعر الخوارج ، ص 59. الثبت : الحجة البيّنة .

ISSN : 2410-1818

الثلاث والتي تتمثّل في قوله تعالى : " رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ " . (135) وقوله تعالى : " رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ " (136) وقوله تعالى : " هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ " . (137)

فالشاعر يدعو اللّه أن يهب له التقى والصدق مشفوعين بالحجة والبينّة ، والتقى والصدق – كما نعلم – هما قيمتان مركزيتان بالنسبة للمسلم الحق فما بالك بالخوارج الذين يعتبرون أنفسهم بني الإسلام (نحن بنو الإسلام ...) . وعليه فهو لا يطلب أيَّ غرض دنيوي . بعبارة حاسمة إنها الذات الخارجية التقية الزاهدة الصادقة التي عينها فحسب على الآخرة لا الدنيا الفانية .

وقريب من هذا قول أبي بلال مرداس بن أدية : (138)

إلهي هَبْ لي زُلْفَةً ووسيلةً إليكَ فإني قد سَئِمْتُ من الدَّهْرِ

فقد استلهم الصيغة الدعائية القرآنية (هب لي) مصدّرًا إياها بالمنادى (إلهي) لا (رب) ، وواضح أنه لم يطلب أمرًا دنيويًّا ، بل الزلفى والوسيلة بفعل الطاعات وترك المعاصي ، تمامًا كصاحبه . وهكذا هم الخوارج ينشدون كل ما يوصلهم إلى الآخرة ونعيمها المقيم أما الدنيا فلا وزن لها عندهم .

ويستدعي الشاعر الخارجي القرآن ، من خلال تقنية التناص ، بغية إظهار مدى تعاضد الخوارج وتآلفهم فيما بينهم ، ومدى تسابقهم إلى ساحات الحروب ، ووقودهم في كل ذلك هدى اللّه . يقول الطرماح بن حكيم : (139)

ولكن أَحِنْ يومي سعيدًا بعصبةٍ يصابونَ في فجٍّ من الأرض خائفِ
عصائبُ من شتى يؤلفُ بينهم هدى الله نزَّالون عند المواقفِ

(135) سورة الصافات ، الآية 100.

(136) سورة الشعراء ، الآية 83.

(137) سورة آل عمران ، الآية 38.

(138) شعر الخوارج ، ص 28. الزلفة : القربة والمنزلة ، ومثلها الوسيلة .

(139) شعر الخوارج ، ص 238. خائف : مخوف . عصائب : جماعات . المواقف : معارك الحرب .

ISSN : 2410-1818

يتجلّى التناص القرآني في البيت الثاني في التركيب الإضافي (هدى الله) ، المستدعى – على الأرجح - من قوله تعالى : " ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣ ﴾ " . (140) وقوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨ ﴾. (141) وأيضًا قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠ ﴾. (142).

ويبدو أن الشاعر قد تغيّا من وراء هذا التناص ، التأكيد على أن الخوارج – على الرغم من تعدُّد فرقهم – يوحدهم ويؤلف بينهم شيء واحد ، ألا وهو هدى الله الذي يتمثل في الدين الصحيح دين الإسلام – حسب فهم الجماعة لماهيته – هذا الدين الذي يرسم الصراط المستقيم للمؤمنين به ، في ضوء كتاب الله الأعظم القرآن الكريم . باختصار إنه يريد أن يقول إن الخوارج هم من يجمعهم – على تعددهم – هدى الله ، أما سواهم من الجماعات الدينية ، فضالون كافرون .

ويعمد الشاعر الخارجي إلى تطعيم نصوصه بصيغة الاستعاذة بالله الواردة في القرآن الكريم ، فقال سبحانه : " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " .(143) ومن ذلك قول يزيد بن حبناء : (144)

أعوذُ بالله من أمرٍ يزيِّنُ لي لومَ العشيرةِ أو يُدْني من العار

(140) سورة الزمر ، الآية 23.

(141) سورة الأنعام ، الآيتان 87 ، 88.

(142) سورة البقرة ، الآية 120.

(143) السورة نفسها ، الآية 67.

(144) شعر الخوارج ، ص 87.

ISSN : 2410-1818

فالشاعر – هنا – يستعيذ بالله تعالى من أي أمر قد يثنيه ، تحت ضغط عشيرته ، عن الانخراط في الجهاد الخارجي ، الأمر الذي يقربه من العار ، وقد استلهم التركيب القرآني (أعوذ بالله) ، ذلك أن الاستسلام للوم العشيرة ، في اعتقاده ، أمر جلل لابدّ من اللجوء إلى الله حتى يعينه ويصرفه عن الوقوع فيه .

كما نجد الشاعر الخارجي يوظّف التناص مع القرآن ، في سياق التغنّي بجماعته الخارجية : عبادةً وتقوىً . يقول عمرو التميمي : [145]

معي كلُّ أوّاهٍ برى الصَّومُ جسمَهُ ففي الجسم منه نهْكَةٌ وشحوبُ

تحيلنا المفردة (أوّاه) الساطعة في صدر البيت إلى قوله تعالى : " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ "[146] وهكذا فإن الشاعر يروم من وراء هذا التناص الإشارة – وإن من طرف خفي – إلى أن أصحابه الخوارج هم تمامًا كأبي الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – كثيروا التأوّه من خوف الله تعالى ؛ حتى إنهم – كما عكست ذلك الصورة الاستعارية – قد جعلوا العبادة ممثلة بالصوم سلوكًا يوميًّا ، وهو ما بدا فيه هذا الصوم مبراة (آلة البري) تبري أجسادهم التي استحالت بفعله إلى أجساد هزيلة منهكة يهيمن على وجوه أصحابها الشحوب . بعبارة أكثر وضوحًا ، إن الشاعر يريد أن يقول : إن الخوارج استثنائيون في عبادتهم حتى لكأنهم كالأنبياء من أولي العزم ، والذي يأتي على رأسهم سيدنا إبراهيم .

ومن التوظيف القرآني الاستفادة من تركيب (صلوات االله)على العباد المؤمنين الصالحين ، حيث ألفينا الشاعر الخارجي يوظف ذلك في سياق رثاء الزوجة الحبيبة . يقول مالك المزموم : [147]

صلّى الإلهُ عليكِ من مفقودةٍ إذ لا يلائمك المكانُ البلقعُ

حيث استلهم الشاعر تركيبه الفعلي (صلّى الإله) والمتجلي في صدر البيت ، من التركيب الاسمي (صلوات الله) الماثل في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾. [148] والواضح أنه قد وظّفه في علاقة جديدة بخلاف ما هي الحال عليه في الآية

(145) نفسه ، ص 89. نهكة : أثر المرض من هزال ونحوه .

(146) سورة هود ، الآية 75.

(147) شعر الخوارج ، ص 176.

(148) سورة البقرة ، الآية 157 .

ISSN : 2410-1818

الكريمة ، إذ رام من ورائه ، ثناء الله ورحمته على زوجته الحبيبة وحدها دون سواها ، الشيء الذي دلّ على مدى حبه لها ، وأيضًا مدى حزنه على رحيلها الفاجع .

ويعمد الشاعر الخارجي إلى توظيف التسبيح ، في سياق التأكيد على حتمية الآخرة وأنَّها المآل لأي إنسان ، وأنَّ الله – سبحانه – هو باعث الخلق وهو وحده من سيحاسبهم . يقول قطري بن الفجاءة مرتجزاً[149]:

سبحانَ ربي باعثِ العبادِ

سبحانَ ربي حاكمِ المعادِ

ويظهر أنه قد استلهم الصيغة التسبيحية (سبحان ربي) من قوله تعالى : ﴿ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣ ﴾ [150] . استلهمها في أفق التأمُّل الأخروي ، ليؤكد على حتمية الآخرة وأنَّها حقًّا تمثّل الحياة الحقيقية ، ومن ثَمَّ فإنه يتوجب على من يريد الفوز يوم البعث والحساب ، أن يضمن ذلك من خلال ولوجه من باب الشهادة في سبيل الله.

4. **التناص الأسلوبيّ :**

نستطيع أن نقول إن هذا التناص يشكّل معارضة لنص آخر على سبيل التقليد أو المحاكاة ؛ فهو يحيل بكل وضوح على محاكاة نصٍّ سابق لذا ، فقد عمد الشاعر الخارجي إلى هذا اللون من التناص ، فاستخدمه في خطابه الشهري ليحاكي فيه أسلوب القرآن الكريم ، ومن ذلك ما طالعناه في سياق رثاء نافع بن الأزرق الذي قتله جيش المهلّب بن أبي صفرة ، حيث قال أحد الشعراء الخوارج كاشفاً عن هول المعركة : [151]

شَمِتَ المهلَّبُ والحوادثُ جمّةٌ ... والشامتون بنافعِ بنِ الأزرقِ

ورمى المهلَّبُ جَمْعَنَا بجموعه ... لما أُصِبْنَا بالصبورِ المتقـــى

فـيذيقنا في حـربنا ونذيقُـهُ ... كلُّ مقالتُهُ لصاحِبِـــه: ذُقِ

(149) شعر الخوارج ، ص 115.

(150) سورة الإسراء آية 93.

(151) شعر الخوارج ، ص 72

ISSN : 2410-1818

وتتجلى محاكاة الشاعر لأسلوب القرآن في قافية البيت الثالث ممثلة بفعل الأمر (ذق) المستوحى من قوله تعالى : "ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" (152) وإذا كان هذا الفعل الأمر في الآية القرآنية ، هو خطاب تهكمي توبيخي للأثيم الشقي بمعنى ذق هذا العذاب الذي تعذَّب به اليوم ، إنك أنت العزيز في قومك ، الكريم عليهم ، فإن هذا الفعل في البيت الشعري ، يعكس هول المعركة بين الطرفين : الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق ، وجيش الأمويين بقيادة المهلَّب بن أبي صفرة ، غير أن (ذق) في البيت أيضًا ، تدل على تكافؤ الطرفين في هذه المعركة من حيث اثخان كل طرف في الآخر . والجلي أن الشاعر قد وظَّف التناص – هنا – للإيحاء بهول المعركة ، وشدتها وعظيم التهابها بين الطرفين ، من خلال استحضار أجواء جهنم الحمراء ، التي تحرِّك في أفقها فعل الأمر (ذق) الماثل في الآية الكريمة.

ويفيد الشاعر الخارجي من أسلوب القرآن الكريم ، في سياق لوم النفس وزجرها على استغراقها في الحب ، وعشق المرأة ، واتباع هوى النفس ، في حين أن الخوارج لم يخلقوا لذلك . يقول مالك المزموم : (153)

أَلَم يَانِ لي يا قَلبُ أَن أَتركَ الصبا وَأَن أَزجُرَ النَفسَ اللَجوجَ عَنِ الهَوى

فالشاعر – هنا – قد استقى الصيغة الاستفهامية القرآنية (ألم يأن) والمشحونة بالاستنكار والعتاب واللوم ، استقاها من قوله تعالى : "﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾"(154)

نقول استقاها بمحمولاتها وتوابعها وامتداداتها ، كيما يعزِّز من قيمة مقوله الشعري ، أسلوبيًّا ودلاليًّا.

ويوظف الأسلوب القرآني عند المقارنة بين البطل الخارجي عاشق السيف وغيره ممثلًا بعاشق الأكل . يقول شاعر مجهول منهم : (155)

---

(152) سورة الدخان ، الآية 49

(153) شعر الخوارج ، ص 174

(154) سورة الحديد ، الآية 16

(155) شعر الخوارج ، ص 232 . الجحف : الضرب بالسيف.

ISSN : 2410-1818

ولا يَسْتَوي الجَحْفانِ جَحْفُ ثَرِيدَةٍ وجَحْفُ حَرورَيٍّ بأبيضَ صارِمِ

فالملاحظ أن الشاعر قد وظّف الأسلوب القرآني عند المقارنة بين شيئين متباينين تمام التباين ، وقد تجلّى هذا في غير آية قرآنية لعلَّ أبرزها قوله تعالى : "قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (156) وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ "(157) وقوله تعالى أيضاً : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.(158)

وغاية الشاعر من هذا الاستلهام ، منح أسلوبه قوة بلاغية وإبلاغية معًا ، ولك عند عقد المقارنة بين السلوك الفعلي لأي خارجي ، وسلوك غيره من الناس .

ومن أساليب القرآن التي استقاها الشاعر الخارجي – على سبيل التناص – صيغة (كل جبّار عنيد) ، وذلك في سياق الذم . يقول الصحاري بن شبيب :(159)

لـم أُردْ منه الفريضةَ إلا طمعًـــا في قتله أن أنـالا
فأريحَ الأرضَ منه وممن عاثَ فيها وعن الحقِّ مالا
كـل جبـارٍ عنيـــــدٍ أراه تـرك الحقَّ وسنَّ الضَّلالا

(156) سورة المائدة ، الآية 100.

(157) سورة الحشر ، الآية 20.

(158) سورة فاطر ، الآية 12.

(159) شعر الخوارج ، ص 200.

ISSN : 2410-1818

وهذه الصيغة أو السبيكة القرآنية تتجلّى في القرآن الكريم في آيتين : الأولى تتمثل في قوله تعالى : "وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ "[160]ولأخيرة تتمثل في قوله تعالى : "وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ".[161]

والشاعر الخارجي قد حاكى طريقة القرآن – هنا - موظّفًا هذه الصيغة ، ودافعه ورودها في القرآن بما هي منزرعة في سياق إهلاك عاد والظالمين المكذبين لرسل الله ، وكأني بالشاعر – ها هنا – يشير إلى أن مصير الوالي (خالد بن عبدالله القسري) كمصير عاد وكل ظالم ، كيف لا ، وقد قتل ظلمًا أحد الخوارج الصفرية ، لذا فقد عزم – الشاعر – على قتل القسري انتقامًا لصاحبه.

ويتناص الشاعر الخارجي مع القرآن ، مستثيرًا من أسلوبه الأثير في أفق حديثه عن بطولاته وأصحابه في مقارعة الأعداء . يقول حبيب الهلالي : [162]

وشَهِدْتُ الخيلَ في ملمومةٍ ما ترى منهنَّ إلا الحدقـــا
يـتساقون بأطرافِ القنـا من نجيع الموتِ كأسًا دهقا

لا نحتاج إلى كبير تأمل – ها هنا - لإدراك السبيكة القرآنية ؛ إذ نراها ساطعة في نهاية البيت الثاني ممثلة في (كأسا دهقا) ، والتي ارتشفت من قوله تعالى : " وَكَأْسًا دِهَاقًا " . [163]

بيد أن التوظيف الأسلوبي – هنا – قد اتخذ شكل علاقة جديدة ؛ على معنى أنه مغاير لما ورد في القرآن ، ذلك أن السياق القرآني يتعلق بالأشياء التي أعدها الله للمتقين في الجنة ، والتي منها الكأس الدهاق ، أي المترعة المليئة من خمر الجنة ، في حين أن التوظيف في البيت يقصد به الكأس المليئة من نجيع الموت وشتان بين الحالة القرآنية ، وهذه الحالة ، حيث طالعنا البيتان الشعريان بلوحة قتالية توجها التناص القرآني ، حيث يسقي الخوارج ، وهم على خيولهم في كتيبة متماسكة أشدَّ التماسك ، يسقون ويجرِّعون أعداءهم في معركة حامية الوطيس الموت إلى درجة غابت معها أجساد

(160) سورة هود ، الآية 59

(161) سورة ابراهيم ، الآية 15

(162) شعر الخوارج ، ص 213. الملمومة : الكتيبة الكثيفة . القنا : الرماح .

(163) سورة النبأ ، الآية 34.

ISSN : 2410-1818

الخيول ، وما عادت تُرى إلا حدقات عيونها ، كناية عن هول المعركة وعظيم عنفوانها ، نقول بكلمات حاسمة : يسقونهم ويجرِّعونهم كؤوسًا مملوءة بالموت الزؤام .

وهكذا ، فإن الشاعر الخارجي – في ضوء ما تقدم – قد أفاد من القرآن الكريم وأساليبه وطرائقه في عرض دلالته ومعانيه ، فألفينا هذا الشاعر الخارجي أو ذاك ، يوظّف هذه الأساليب على نحو متوافق ومنسجم مع أغراضه ومراميه ، وبذلك فقد استطاع أن يوصل رسالته الشعرية للمتلقين أيما توصيل.

ISSN : 2410-1818

الخاتمة :

وبعدُ ، فقد انتهى البحث إلى عدة نتائج وملاحظات ، بوسعنا سرد أبرزها على النحو التالي :

1) يزخر شعر الخوارج بالتناص القرآني على نحو شديد الوضوح ، الأمر الذي يدل على تشرُّب الشعراء الخوارج بالقرآن الكريم وتعمقهم لآياته ونصوصه ، وهو ما يمكن معه القول إن القرآن الكريم يشكِّل المصدر الأساسي لثقافة الشعراء الخوارج ، حتى لنكاد نقول إن جُلَّ أفكارهم بل ومشاعرها مستمدَّة منه .
2) كشف التناص القرآني في شعر الخوارج ، عن طبيعة عقيدتهم ، وهمومهم ، وأفكارهم التي كافحوا لأجلها ونذرو أنفسهم لها كفكرة الحاكمية لله ، وعشق الاستشهاد والموت ....إلخ.
3) لم يوظِّف الشعراء الخوارج القرآن في شعرهم بوصفه يمثل مرجعية دينية وشعرية ذات بعد معنوي فحسب ، وإنما بوصفه جزءًا أصيلًا من البنية الدلالية للخطاب الشعري الخارجي ، بمعنى أنه مرتبط عضويًّا ، وبنيويًّا ، ودلاليًّا بهذا الخطاب .
4) امتصَّ الشاعر الخارجي الآيات والنصوص القرآنية في أفق سياقات شعرية وفكرية ونفسية تتجاوب مع أنفاس شاعريته المتمحورة حول قضيته الخارجية .
5) وظَّف الشعراء الخوارج التناص القرآني بغية تكثيف المعاني والدلالات وتقويتها وتعميقها خاصة في أفق الحجاج مع الفرق الدينية الأخرى .
6) يدور التناص القرآني في شعر الخوارج – في أغلبه – في حيّز التجلّي لا الخفاء ؛ أي أن تناصاتهم مع الآيات القرآنية تمثل – في معظمها - بوابة إلى المضمون.
7) يكشف التناص القرآني في شعر الخوارج عن تصرُّف وتحوير خلَّاقين بل وعن وعي شديد من الشاعر الخارجي بالنصين المتعالقين ، بمعنى أن استدعاء النص القرآني واستحضاره لم يكن قائمًا على الاستشهاد فحسب ، وإنما تم التصرُّف به وتحويره لخدمة المعنى المراد والمشتهى.
8) اتخذ التناص القرآني في شعر الخوارج أشكالاً متعددة : تناص استشهادي اقتباسي ، وتناص إحالي ، وتناص تلميحي إشاري ، وتناص أسلوبي.
9) كشف البحث عن ثورية الخوارج وزهدهم ومدى إكبار الشاعر الخارجي للإنسان الخارجي إجمالاً إلى درجة بدا فيها هذا الإنسان نموذجًا استثنائيًا لمن يقدِّم حياته سعيدًا في سبيل عقيدته ، ذلك أن الموت لديه يعدُّ معادلًا موضوعيًا للحياة الأبدية في الآخرة.
10) أظهر التناص القرآني في شعر الخوارج مدى حرص الشاعر الخارجي على إبراز مناقب الجماعة الخارجية وأبطالها وتضحياتها في أفق قرآني ، بهدف إظهارهم الجماعة المؤمنة التي تمتلك الحقيقة الدينية في مقابل الجماعات الأخرى المضادَّة.